فَلْنَتَعَلَّمْ
حُبَّ رَسُولِ اللّهِ

كيف تكون صحابياً في القرن الواحد والعشرين

محمد الخليفي

الطبعة الثانية

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب: 14/6364
خليوي: 833 814 3 961+
تلفاكس: 135 541 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

فلنتعلم
حب رسول الله

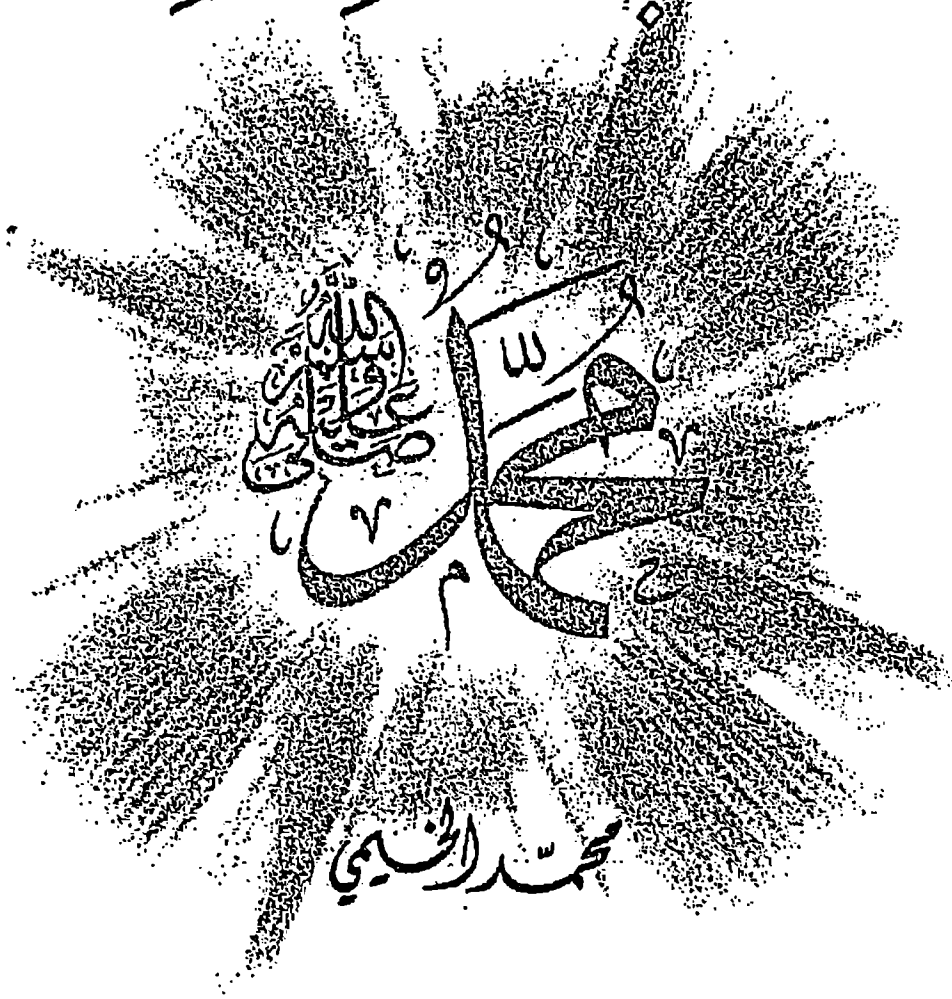

محمد النبي

وصلاة وسلاماً على الحبيب المصطفى

مُقَدِّمَة

لعلّ كلمة (الحب) هي أكثر الكلمات تداولاً على الألسنة في العالم اليوم، فنحن نسمعها في الأشعار وفي الأخبار وفي الأغاني والمسلسلات والأفلام ومباريات كرة القدم، وإعلانات الشامبو والصابون وحليب الأطفال!!

نسمعها من كل مكان، ومِنْ أيّ كان، ويطلقها أي شخص على أي معنى من معاني الرغبة مهما كان تافهاً وسطحياً.

وآل حال هذه الكلمة المسكينة إلى شرّ حال، ففقدت معناها الحقيقي وسحرها، بل وفقدت احترامها، لأنها صارت إذا أُطلقت يُشتَمُّ منها رائحة شهوات وغرائز تريد أن تنبثق وتتفلت، فلا تجد منفذاً أكثر تقبلاً من منفذ ما يسمى حباً.

ومع هذا السيل العاتي من تشويه المفاهيم، ومسخ القيم، فقد غابت تلك المعاني السامية التي تحملها كلمة (الحب)، وصار الحب الذي كان ولا يزال

دين الكرام، ومذهب الصالحين والأولياء، صار مرادفاً للأهواء والشهوات والماديات.

وصار ذكر هذه الكلمة في سياق الكلام عن التربية والتزكية وتهذيب النفوس، صار كلاماً في منتهى الغرابة، إذ الشائع أن الحب هو شأن أهل الشعر والطرب والفن واللهو، وأما المتدينون والمؤمنون، فما لهم وللحب؟

وما علاقة سهر الليالي، وحرقة القلب، وذرف العيون، وتصاعد الزفرات، ما علاقة ذلك كله بالله، وبرسول الله؟

وهل الإسلام إلا طقوس وتمتمات، متى فعلها المرء، فقد وجبت له الجنة، حقاً مكتسباً لا ينزعه منه أحد؟

هكذا صارت الصورة لدى أكثر المسلمين، وإلى الله المشتكى.

وأما السلف، ومن تبعهم من أهل الله وورثة الأنبياء، فإنهم كانوا لا يرون الإسلام شيئاً إلا الحب، حب الله وحب رسول الله ﷺ.

لقد كانت طريقتهم في التربية تعتمد على إشعال نيران الحب في تلك المضغة التي أخبرهم سيدهم رسول الله ﷺ بأنها إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

فمتى عُمِّر القلب بالحب لله، وبالحب لرسول الله ﷺ، فقد أخذ المرء بسبب السعادة وركب سفينة النجاة.

ولقد خصنا الله من بين الأمم، بصفوة أنبيائه ﷺ وخير خلقه ﷺ، وفتح الله لنا به الأبواب المغلقات، ونوّر لنا بطلعته المسالك المظلمات، وجعل محبته ﷺ بابه الأعظم سبحانه.

فلذلك كله، وقع في نفسي أن أجمع في هذا المطلب العظيم، الذي هو حب رسول الله ﷺ، أخباراً وفوائد عن أهل الحب له ﷺ حتى أنتصر لهذا النبي العظيم، وأهيِّج لمحبته القلوب، كما انتصر قوم لمحبوباتهم، فجيَّشوا لها الأهواء، وهيَّجوا بها الشهوات.

ولقد حرصت في هذا المؤلف، أن يكون اعتمادي على كلام مَنْ بصدق المحبة عُرِفوا، وبعلوِّ الكعب في المتابعة وُصِفوا، وشهد لهم بذلك أحوالهم قبل أقوالهم، وتواترت بمحمديتهم الأخبار، وشهد لهم بذلك أدبهم العالي مع الحضرة النبوية، وتواترت بكل ذلك عنهم الأخبار مسلسلةً بنقل أهل الله وأوليائه.

وتحاشيت ـ ما استطعت ـ أن أتطفل على هذا المقام الأرفع، الذي هو مقام الحب له ﷺ، بأي شيء من صنعي واجتهادي إلا جهد الجمع والترتيب، وكيف لي أن أزاحم في هذا الميدان، قمماً شامخات وأطواداً سامقات؟

وأذكر أنني كنت بحضرة أحد المشايخ المعروفين في الشام، وتلميذ بين يديه يقرأ عليه في كتاب من كتب العلم، وحصل أن التلميذ قرأ عليه تعريف المؤلف بنفسه بأنه خادم السنة، أو خادم رسول الله ﷺ أو ما شابه، فانقبض الشيخ عند سماع هذا الكلام ولم يستحسن ذلك، ولما سئل عن السبب قال لمن حوله: إن مقام خدمة رسول الله ﷺ مقام عظيم جدًّا، من دونه مفاوز ومهالك، ومن ادعى هذا المقام لنفسه طولب بالدليل، وكل مُدَّعٍ ممتَحَن.

فلذلك فأنا ـ وإن كنت له محباً ﷺ ـ فالله يشهد بأني أشعر كما لو كنت على شعبة من النفاق إذ أتحمت نفسي في هذا الخضم، وأراني وأنا أحرك قلمي الساعة، لا أعدو أن أكون تزماً يتحرك بين أقدام العمالقة، ولا يجرؤ أن يرقى ببصره إلى هاماتهم.

ولكني قلت في نفسي إن في خدمة أهل المحبة له ﷺ تقرُّباً إلى جنابه ﷺ، ولا ينبغي أن يكون التقصير في جنب الله وفي جنب رسول الله ﷺ مانعاً من العمل، وقد قيل:

إذا لم يعظِ العاصين من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

ولكني عرفت حدّي، وألزمت نفسي الوقوف عنده، فلم أتجاوز في عملي حدَّ الجمع والاقتباس والترتيب، وليس لي في هذا الكتاب إلا هذا القدْر، وإلا فإن محبة رسول الله ﷺ لها أهلها، ولا يصف أحوالها وأهوالها إلا من عاناها، ولا يتكلم عن علاماتها، ولا يعلّم طرقها إلا من حاولها.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ورضيت لنفسي من هذا الجهد البسيط بما رضيه الشاعر لنفسه إذ قال:

أسير خلف ركاب النجب ذا عَرَج مؤمِّلاً جبر ما لاقيت من عِوَج

فإن لحقت بهم من بعدما ما سبقوا فكم لربِّ السما في الناس من فرجِ

وإن ظَلَلْت بِقَفْر الأرض منقطعاً فما على عَرِجٍ في ذاك من حَرَجِ

نسأل الله تعالى أن يجبر كسرنا، وأن يقوِّم عوجنا، وأن يشفي عرجنا، وأن يفتح مغاليق قلوبنا لمحبة حبيبه المصطفى ﷺ، وأن يكحل عيوننا ويحيي أرواحنا بالتفاتة منه ﷺ تلحقنا بركب السعداء من محبيه ﷺ.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

دمشق في: ١٥ رمضان من العام ١٤٢٦ هـ

محمد

كيف تكون صحابياً في القرن الواحد والعشرين؟

أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يفوزوا بمحمد ﷺ دوننا،
والله لنزاحمنّهم عليه، حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً

أبو مسلم الخولاني

الصحابي ـ كما يعرّفه أهل الاختصاص ـ هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإيمان. وجيل الصحابة هو خير أجيال أمة محمد ﷺ، وهو من قال فيه ﷺ: «خير القرون قرني».

ويقول أهل العلم إن هذا الجيل قد انقرض مع نهاية القرن الهجري الأول بوفاة آخر أصحاب رسول الله ﷺ الذين اكتحلت عيونهم برؤيته ﷺ وكان ذلك الصحابي هو أبو الطفيل، عامر بن واثلة ﷺ.

فإذن، أي صحبة للنبي ﷺ نتكلم عنها، ونحن في القرن الخامس عشر للهجرة، الواحد والعشرين للميلاد؟

والحق أن أهل العلم من المحدّثين والأصوليين رحمهم الله، عندما أطلقوا هذا الاصطلاح (أي اصطلاح الصحابي) قصدوا به التوظيف العلمي، وذلك من خلال الحكم على الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، ومعرفة اتصالها به ﷺ، من انقطاعها عنه ﷺ، على ما هو معروف في علم دراسة الأسانيد، أو من خلال استفادة الأحكام الشرعية (من حلال وحرام ومكروه ومندوب وغيره) من أقوال الصحابة وأفعالهم، وذلك لما اختصّ به جيلهم من

معاصرتهم لنزول التشريع.

ولا شك أن الصحبة بهذا المعنى المذكور، قد انقطعت مع وفاة آخر أصحابه ﷺ مع نهاية القرن الأول الهجري.

وأما ما تصدته أنا بهذا الاصطلاح، فهو معناه اللغوي الواسع، إذ الصحبة في اللغة هي الرؤية والملازمة، هكذا مطلقة، حتى تصدق الصحبة (ولو مجازاً) على كل رؤية وكل مجالسة، سواء كانت الرؤية بعين الرأس أو بعين القلب، وسواء كانت المجالسة بالجسد أو بالروح.

لقد كان الشيخ أبو العباس المرسي[1] ﷺ يقول:

«والله لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين، ما عددت نفسي من

---

(١) أبو العباس المرسي رضي الله عنه العارف بالله، والمربي الكامل، ولد في الأندلس في مدينة مرسية وإليها ينسب، يتصل نسبه بسعد بن عبادة الأنصاري سيد الخزرج.
خرج للحج مع أهله في البحر، فغرق والداه، وساقته أقدار الله إلى تونس، ليتعرف على الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وليصبح خليفته، وثاني أشهر رجال المدرسة الشاذلية في التصوف كان رحمه الله لا يحب المريد الذي لا يعمل، وكان تلميذه ابن عطاء الله يقول عنه: كان لا يتحدث في علم من العلوم إلا وظن السامع أنه لا يحسن غير ذلك العلم.
وكان شيخه أبو الحسن يقول فيه: أبو العباس أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض.
كان رحمه الله من أرباب القلوب وأهل العلم اللدني، فكان يكرم الناس بحسب مرتبتهم عند الله، فربما دخل عليه المطيع، فلا يلتفت إليه، لكونه مغروراً بعبادته، وربما دخل عليه العاصي فقام له وأكرمه، لأنه دخل بذلّ نفس وانكسار لله، لما أصابه من المعصية.
توفي رحمه الله بالإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ عن سبعين عاماً.

(٢) الشيخ بدر الدين الحسني، علاّمة الزمان ودرّة العصر، المحدّث الأكبر، ولد في دمشق (١٢٦٧ هـ) كان يحفظ الكتب الستة وغيرها من كتب الحديث بالأسانيد مع أحوال رجالها وما قيل فيهم وسنوات وفاتهم، ولم يكن قد أتم العشرين. كان رحمه الله شديد المحافظة على السنة، ولم =

المسلمين» وكان محدث الشام الأكبر مولانا الشيخ بدر الدين الحسني[١] ﷺ يقول: «هناك ناس، لو غاب عنهم رسول الله ﷺ لحظة لماتوا»[٢].

وهذا منقول عن كثير من أهل الله وأوليائه، كالسيد عبد القادر الجيلاني[٣]، والسيد أحمد الرفاعي[٤]، والشيخ نور الدين الشَوني[٥] وغيرهم من أهل الصلة برسول الله ﷺ.

= يترخص فيها حتى توفي، قائم الليل صائم النهار، شديد الورع والتواضع، فلا يفتي، ولكنه يحيل الفتوى على طلابه، ولا يؤم أحداً في الصلاة، ولا يتكلم في الدنيا أبداً، ولا يمكن أحداً من الكلام فيها في مجلسه، يزور السجون والمدارس ويطلب الدعاء ممن فيها من المسجونين والأولاد، قال فيه الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية: «لو كان عندنا بمصر لم تحمله العلماء إلا على الرؤوس»، وقال فيه شيخ الإسلام في الأستانة موسى كاظم أفندي: «إنه قطب العالم الإسلامي»، وقال عنه السيد الكبير الكتاني: «إنه منذ خمسمئة سنة لم يوجد له نظير». وقال تلميذه الشيخ محمود الرنكوسي: «وقد أجمع من يعتد بإجماعه على أنه بدر الدين وشمس الزمان، فأخلاقه وأحواله مطابقة للأخلاق المحمدية» توفي في دمشق ١٣٥٤ هـ، وقبره في تربة الباب الصغير معروف يزار.

انظر الدرر اللؤلؤية في النعوت البدرية للشيخ محمود الرنكوسي ص ٨ وما بعدها.

(١) الدرر اللؤلؤية ص ٢٠.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني شيخ الشيوخ، وسلطان الأولياء، وأحد أركان الولاية الأتوياء، الذين وقع الإجماع على ولايتهم عند جميع أفراد الأمة المحمدية، إمام الحنابلة في عصره وصاحب الكرامات الباهرة المتكاثرة التي لا تحصى عدداً، قال الشيخ العز بن عبد السلام: «ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله». توفي رضي الله عنه في بغداد سنة ٥٦١ هـ، ولم يبق في بغداد أحد إلا حضر جنازته فلم يكن دفنه إلا في الليل لشدة الزحام، وأولاده وطريقته منتشرون في أنحاء العالم، قدس الله سره ورضي عنه وجمعنا به.

انظر شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.

(٣) سيأتي ترجمته.

(٤) سيأتي ترجمته.

أفلا تجيز لي صلتهم هذه برسول الله ﷺ أن أستعير لها وصف الصحبة؟

وإن لم يكن من لا يحتجب عنه رسول الله ﷺ طرفة عين يستحق وصف الصحبة، فمن يستحقها؟

فهذه هي الصحبة التي قصدتها، وهذه هي الصحبة التي لم تنقطع ولا تنقطع، ولا يفصم عراها مَرُّ الأعصار، ولا بُعْد الديار.

هي صحبة بابها مفتوح، وكم دخل فيها من مريد.

وطريقها مأهولة وكم سبق إليها من سعيد.

فهل نشمّر؟؟

ولكن... أين هي الباب، وكيف هي الطريق؟

الباب الأول

تمهيد في الحب

الفصل الأول

الحب، ما الحب، وما أدراك ما الحب؟!

وعن الحب صدرنا وعلى الحب جبلنا

فكلا جئناه قصداً ولهذا قد تبلنا

الشيخ محي الدين بن عربي

وردت كلمة الحب وما يشتق منها في القرآن الكريم، في نحو أربع وثمانين موضعاً ووردت على لسان النبي ﷺ ولسان الخاصة من ورثته عدداً لا يحصى من المرات.

هي كلمة من حرفين، ولكنها كلمة تختزن فيها أسرار المخلوقات.

فبالحب تحنو الأم على ولدها، وبالحب يلتقم الولد ثدي أمه، وبالحب تدور الأفلاك بانتظام فلا الشمس تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار.

بالحب تتجافى الجنوب عن المضاجع لمناجاة الحبيب، وبالحب تطوى البطون جوعاً وظمأ لأن في ذلك مرضاة الحبيب، وبالحب تُبذل النفوس، وتطير الرؤوس لأن في ذلك طاعة الحبيب.

بالحب يصبح الجوع شبعاً، والظمأ رياً، والبعيد قريباً، والموت حياة، والفاقة غَنَاءً، والنهار ليلاً، والليل نهاراً.

لو قال المحبوب للمحبِّ: ادخل النار، لدخلها غير خائف، ولو قيل له: انقل الجبال، لنقلها غير خائف.

بالحب صاح حَرَام بن ملحان وقد اخترقته السيوف: فزت ورب الكعبة.

بالحب ألقى عُمَيْر بن الحِمَام بتَمَرَات كانت في يده وألقى بنفسه إلى الموت وهو يقول مستعجلاً إلى الجنة: إنها لحياة طويلة إذا بقيت حتى آكل هذه التمرات.

بالحب صرخ عبد الله بن عمرو الأنصاري: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى.

بالحب نجى من نجى، وبالحب هلك من هلك.

وما تعلَّم المتعلم إلا بحب العلماء، ولا جهل الجاهل إلا بحب الأغبياء. ولا أطاع من أطاع إلا بحب الأتقياء، ولا عصى من عصى إلا بحب الأشقياء.

يقول ابن القيم[1] رحمه الله:

«فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت

---

(١) ابن القيِّم: هو شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيّم الجوزية، والجوزية اسم مدرسة في مدينة دمشق في البزورية، وكان والده قيّماً عليها، فنسب إليها، أصله من إزرع من قرى حوران وولادته في مدينة دمشق سنة ٦٩١ هـ، يقول عنه معاصره ابن كثير رحمه الله: «كان ملازماً للاشتغال ليلاً ونهاراً، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد ولا يحقد، ولا أعرف في زماننا من هو أكثر عبادة منه، وكان يطيل الصلاة جداً، ويمد ركوعها وسجودها، وكان إذا صلى الصبح جلس في مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ويقول: هذه غدوتي لو لم أفعلها سقطت قواي» له تآليف كثيرة نافعة، توفي في دمشق سنة ٧٥١ هـ ودفن في تربة باب الصغير، وقبره الآن عند مدخلها معروف يزار.
انظر الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٠.

على نيل مآربها وتخلصت من معاطبها واتخذت إلى ربها سبيلاً وكان لها دون غيره مأمولاً وسؤلاً، وبها نالت الحياة الطيبة وذاقت طعم الإيمان لما رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً»[1].

إنها سرّ وأي سرّ، إنها غريزة معجزة ركّبها الله في المخلوقات جميعاً وفي الإنسان خصوصاً، وجعل لها أسراراً فيه، وسلطاناً عليه، فبها يقاد غير كاره، وبها يموت غير آبه، وبها يصبر، وبها يقْدر، وبها يسمو، وبها يهبط.

هذا هو الحب، وحسبك، فإن القلم لو ترك والحبّ لما توقف.

(١) روضة المحبين: ص ٣٤.

الفصل الثاني

أنت مع من أحببت

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

عاشق

يروي أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال:

يا رسول الله، متى الساعة؟

فقال له ﷺ: «وما أعددت للساعة؟»

فقال الرجل: حبَّ الله ورسوله.

فقال ﷺ: «فإنك مع من أحببت»[1].

وروى زِرُّ بن حُبَيش التابعي أنه أتى صفوان بن عَسَّال من أصحاب رسول الله ﷺ فسأله إن كان سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يتعلق بالحبِّ، فقال صفوان ﷺ: نعم، كنا مع رسول الله في سفر، فبينا نحن عنده، إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد.

فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته (أي بصوت عالٍ كصوته): «هاؤم».

فقلت له: ويحك اغضض من صوتك، فإنك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن هذا. فقال الأعرابي: والله لا أغضض، ثم قال مخاطباً النبي ﷺ:

المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟

---

(١) متفق عليه.

فقال ﷺ: «المرء مع من أحب يوم القيامة»[١].

صدق سيدنا رسول الله ﷺ وكل كلامه صدق.

نعم... المرء مع من أحب.

هو معه لأنه أصبح هو، هو معه لأن الحب جعله ومحبوبه شيئاً واحداً، فطبعه بطابعه، وخلّقه بأخلاقه، بل وشكّله بشكله[٢].

إن الله الذي خلق المخلوقات ـ وهو أعلم بمن خلق ـ جعل المحبة التي ينجذب بها المحب إلى محبوبه، أقصر طريق لكي يتحد المحبوب بمحبوبه، بصفته، ومنطقه، وروحه، وشكله.

أرأيت إلى من أحبَّ نجماً من نجوم المجتمع، ألا ترى كيف ينجذب إليه من حيث لا يشعر، وتراه يحاكيه ويقلده في كل شيء، في كلامه، وحركة يده، ولباسه، وتسريحة شعره، وحتى شكل حذائه.

أرأيت ماذا فعل الحب فيه؟

أرأيت إلى اثنين أحب كل منهما صاحبه، ألا ترى كيف يفهم كل منهما مراد الآخر من غير كلام، ويغتمّ أحدهما لغمّ الآخر، ويفرح بفرحه، من غير أن يتواجها، بل قد يكون كل واحد منهما في بلد غير بلد الآخر.

وكم يقع أشياء من هذه الغرائب مع الأم وولدها، فإن الأم لفرط حبها لولدها ولعظيم تعلقها به، تعلم ما يقع لولدها وما يعرض له من أحوال، حتى

---

(١) متفق عليه.

(٢) هذا الكلام يصدق على الحب بين البشر، أما حب رب البشر، فلا تليق هذه العبارات به سبحانه وتعالى.

كأنها معه، وهو عنها بعيد، فتنقبض لانقباضه وتنسبط لانبساطه، وتارق لأرقه، وكل ذلك من غير سبب ظاهر إلا إحساس قلبها المحبِّ.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا:

«كثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه، ويتحرك بحركته، ولا يشعر أحدهما بالآخر ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب به عينه اتفاقاً...

وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه، وهذا بحسب تعلق الهمة، وتوجّه القلب إليه، واتحاد مراده بمراده، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما في المرض والصحة والفرح والحزن والقلق»[1].

وهذا مجرَّب يعرفه كل من ذاق الحب ذواقاً فقط، ولا أقول اغترف منه.

أعرفت الآن يا أخي معنى قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»..

يقول مولانا رسول الله ﷺ عن نفسه: «اختصر لي الكلام اختصاراً».

إي والله ـ بأبي هو وأمي ـ لقد اختصر له الكلام، فإن هذه الكلمات الأربع «المرء مع من أحب» تختصر سراً تدور عليه العلاقات الإنسانية بأسرها.

اختصر ﷺ في هذه الكلمات الأربع الوصفة السحرية التي توصل الطالب لطلبته، طالب دنيا كان أو طالب آخرة.

إن أردت أن تكون شيئاً فأحبّه، فقط أحبه، وسترى حبك له ما يفعل فيك.

---

(١) روضة المحبين: ص ٣٣٥.

إن أردت أن تعيش مع شيء فلا تفارقه ولا يفارقك، فأحِبَّه، وسترى كيف يعطيك الحب تلك المعيّة.

إن أردت أن تعرف مصيرك ومع من ستحشر، وبأي حالة ستبعث فانظر مَنْ مِنَ الناس تحبّ، واعلم أنك ستكون معه في الآخرة كما كنت معه في الدنيا.

الفصل الثالث

حب النبي ﷺ

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

حكيم

إن كنت يا أخي قد وافقتني فيما قلت، واستحضرت معي من علامات الحب وآثاره العجيبة في نفسك ما تصدقني به في دعواي، أفلا توافقني أن هذه المحبة لا ينبغي أن تكون إلا لمن تنفعك محبته، فترقى بك بدلاً من أن تهوي، وتعزّك بدلاً من أن تذلك، وتكملك بدلاً من أن تنقصك؟

هلا كانت تلك المحبة للنموذج الأرقى والمثل الأعلى الذي جادت به العناية الإلهية للمخلوقات جميعاً إنسهم وجنهم وملائكتهم، سابقهم ولاحقهم؟

هلاَّ كانت لسيد ولد آدم، وأول شافع، وأول مشفّع، سيدنا محمد ﷺ؟

وأي مخلوق سواه ـ فذته روحي ـ تعطيك محبته تلك الكمالات التي تعطيها محبته ﷺ، وهل ثمة مخلوق أشرف وأرقى وأعظم؟

لقد جمع الله في نبيه ﷺ من صفات الكمال ما لم يجتمع لمخلوق سواه، ولا نعلم أن الله أثنى في كتابه الكريم، على مخلوق ثناءه على سيدنا محمد ﷺ، ولا نعلم أنه جعل لمخلوق منزلة تطاول منزلة هذا النبي المصطفى، أدبه سبحانه فأحسن تأديبه، وأثنى على خُلُقه بكلام بليغ مؤكّد بأنواع التأكيدات فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وخلع سبحانه عليه من صفات رحمته

(١) سورة القلم، آية (٤).

ورأفته فقال فيه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، وجعله سبحانه رحمة للعالمين، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] وأقسم بحياته، ولم يقسم بحياة بشر سواه، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣].

وصلى وملائكته عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾[٤].

وقَرَن اسمَه باسمه، فإذا ذكر الله؛ ذكر معه، فلا يصح لأحد خطبة ولا تشهد ولا أذان حتى يقرن بالشهادة بوحدانية الله، الشهادةَ برسالة سيدنا محمد ﷺ.

ورفع له ذكره، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، وعلمه، فاجتمع لديه علم الأولين وعلم الآخرين، وأقرأه ووعده بأنه لن يكون في الناسين.

وأقامه سبحانه في أحسن صورة، وأعذب منطق، وألين حديث، وأحدِّ ذكاء، وأقوى شكيمة، فلا يوجد وصف رفيع يتنافس الناس في التحلي به إلا وبلغ عنده ﷺ غايته ومنتهاه، وما مِنْ وصف وضيع يتنافس الناس في التخلي عنه والتنصل منه إلا وبرئ منه ﷺ، شهد له بذلك من عاداه، قبل أن يشهد له بذلك من والاه.

فمَنْ مِثلُه ـ فدته نفسي ـ وأي جمال يداني جماله، وأي كمال يداني كماله وماذا يقال في صفاته بعد الذي قاله ربه فيه؟

---

(١) سورة التوبة، آية (١٢٨).
(٢) سورة الأنبياء، آية (١٠٧).
(٣) سورة الحجر، آية (٧٢).
(٤) سورة الأحزاب، آية (٥٦).

قيل لابن الفارض[1] رحمه الله: لِمَ لَمْ تصرح بمدح النبي ﷺ؟ فأنشد:

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما تمدح الورى؟

لقد أحبينا سيف الدولة لكثرة ما مدحه المتنبي، واشتقنا لرؤية ليلى لكثرة ما أثنى عليها قيس.

فماذا يقال فيمن مدحه رب الأرض والسماء ومالك الدنيا والآخرة؟

فلما اكتملت في رسول الله ﷺ المحاسن، وتنزه شخصه الكريم عن المثالب، وبلغ الله به إلى أعلى مقام يبلغه مخلوق، أقامه سبحانه للناس أسوة، ثم جذب إليه الخلق بجواذب المحبة، وجعل حبه ﷺ عليهم فرضاً، ولم يقبل منهم إسلاماً ولا إيماناً بغير حبه، وجعل حبه وحبَّ نبيه ﷺ شيئاً واحداً، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

---

(١) ابن الفارض هو عمر بن أبي الحسن علي بن مرشد، الملقَّب بسلطان العاشقين، أصله من حماه، ومولده بمصر سنة ٥٥٦ هـ، سيد شعراء عصره على الإطلاق، وأعظم شعراء الحبّ الإلهي بلا منازع، كان زاهداً متجرداً سائحاً متعبداً، أخباره وأشعاره تدل على قدم راسخة في الولاية يقول المناوي: رأى النبي ﷺ في نومه فقال له: "إلى من تنسب"؟ فقال: يا رسول الله، إلى بني سعد قبيلة حليمة، فقال ﷺ: "بل نسبك متصل بي" يعني نسب محبة وتبعية.
توفي في القاهرة ٦٣٢هـ.
انظر الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ٢/ ٤٩٥ وما بعدها.

(٢) سورة التوبة، آية (٢٤).

وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»[١].

ولما قال عمر - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي» لم يرض ﷺ ذلك وقال: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»[٢].

ورتب سبحانه مقام الناس في التقرب إليه، ودرجاتهم في جنته بحسب حبهم لهذا النبي الكريم.

وذلك لأن المرء بقدر ما يحب رسول الله ﷺ، يكون به أشبه، وإليه أسبق، ولا يزال المرء تعظم محبة النبي في قلبه، ثم تعظم، ثم تتوهج، ثم تتأجج حتى تحرق المسافات عروجاً في مقامات القرب، إلى أن تبلغ مقام الصديقية الكبرى، مقام أبي بكر الصديق الذي أجمع أهل العلم أنه صاحب أعظم مقام بعد مقام الأنبياء حيث أوحي إليهم ولم يوحَ إليه.

ذلك المقام الذي لم يحصله الصديق بكثرة صلاة وصيام فاق بها أقرانه، ولكنه حصله بشيء وقر في قلبه هو حب الله ورسوله، ذلك الحب الذي جعله أشبه الناس برسول الله ﷺ وأقربهم منه منزلة، وأجمعهم لصفاته ﷺ وأفهمهم لمراداته.

أحبَّ رسول الله ﷺ حتى وافقه في كل شيء، وصدّقه على كل شيء، فأنفق عليه ماله كله، ولم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله إلا وكان في خدمته.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

كان يفهم عن رسول الله ﷺ ماذا يريد بدون أن يفوه رسول الله بكلمة، فإذا تكلم ﷺ فهم أبو بكر الإشارة كما يفهم غيره العبارة.

يقول أبو سعيد الخدري: جلس رسول الله ﷺ على المنبر فقال: إن عبداً خيَّره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده.. فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر: وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله عن عبد خيّره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به[1].

نعم، علَّمه الحب.

ويوم الحديبية، اشتد كرب المسلمين لردّهم عن زيارة البيت، بصلح جارت فيه قريش على المسلمين، فكلَّم عمر النبي ﷺ في ذلك وقال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فقال ﷺ: إني رسول الله وهو ناصري، ولست أعصيه، فقال: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوّف به؟ فقال ﷺ: قلت لك إنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوّف به.

---

(١) رواه البخاري.

ثم جاء عمر إلى الصدِّيق فقال له: يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا ونرجع ولـمَّا يحكم الله بيننا؟ فقال أبو بكر: إنه رسول الله، وهو ناصره، وليس يعصيه، قال: ألم يكن يحدثنا أنا نأتي البيت فنطوِّف به؟ فقال أبو بكر: أقال لك: إنك تأتيه العام؟ قال: لا، فقال أبو بكر: إنك آتيه ومطوِّف به[1].

فأجاب أبو بكر بنفس جواب النبي ﷺ حرفاً بحرف من غير تواطؤ ولا اتفاق بل موافقة محب لمحبوبه.

إن أصحاب محمد ﷺ إنما صاروا صحابة نترضى عليهم، ونتبرَّك بذكرهم بفضل المحبة، وتحددت مراتبهم بقدر محبته ﷺ، وسبق بعضهم بعضاً إلى الجنة بسابقيَّة محبته ﷺ.

وهكذا من جاء بعدهم إلى يوم القيامة، كلما أحب أحدهم محمداً ﷺ أكثر، تشَّرب بالأخلاق المحمدية، والصفات المصطفوية، بغير إرادة منه ولا تكلّف، ولا يزال الله يرقى به بمحبته، ثم يرقى، ولا تزال محبته للنبي ﷺ تحمله على المتابعة، وتقمع فيه آثار المخالفة والممانعة له ﷺ، وتشعل في جوانحه نيران الشوق له ﷺ، والرغبة فيه، فلا يزال يسلّي نفسه بتسلية بلال: «غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه»، حتى يلحق بركبه ﷺ، فَيُحسَب عليه، ويصير أولى الناس به ﷺ، وأكثرهم له مجالسة في الدنيا والآخرة، وأكثرهم

(١) رواه البخاري.

به استئناساً ومنه اقتباساً، وحتى تلوح على وجهه الأنوار المحمدية، وتفوح منه الروائح المحمدية، وتسمع منه الحكم المحمدية.

لقد صار وارثاً محمدياً حقاً...

لقد طبعته المحبة بالطابع المحمدي، وختمته بالختم النبوي، يحسّ بذلك كل من يقترب منه أو يجالسه، لقد تحقق بمعيّة (المرء مع من أحب)، ووحّد الحب بينه وبين محمد ﷺ.

وأي خير أعظم من ذلك الخير، وأي مقام أعلى من ذلك المقام، لقد بلغ الهدف الذي لأجله خلق، وعلمه الحب لسيد العباد والعُبَّاد، كيف تكون العبودية والعبادة، وكيف يخرج من الدنيا وقد بلغ الغاية التي لأجلها خلق.

يقول حجة الإسلام الغزالي[1] قدس الله روحه:

---

(١) الإمام محمد بن محمد الغزالي، حجة الإسلام وعَلَم الشريعة والحقيقة، ولد في مدينة طوس سنة ٤٥٠هـ، وهو ما يعرف الآن بمشهد من مدن إيران، وتلقى العلم على كبار علماء عصره حتى عظم أمره وطار صيته في الآفاق وصار إليه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، وكانت أشهر المدارس في العالم وتتلذ، وعظم أمره عند الخاصة والعامة، ولكن الرغبة في الآخرة حركته لترك كل ما هو فيه من جاه وشهرة إلى مجاهدة النفس وتزكيتها، فترك بغداد وساح في الأرض مغموراً مجهولاً، لا يعرفه أحد باحثاً عن اليقين، وفاراً من شهرة لا تنفع عند الله شيئاً، ثم عاد إلى بغداد في آخر عمره، وقد جمع الله له علم القلب مع علم اللسان، وعلم الباطن مع علم الظاهر، بعد تجربة عجيبة جديرة بأن يطلع الإنسان عليها كما سجلها هو في كتابه (المنقذ من الضلال).
ومن أشهر كتب الإمام رحمه الله كتابه إحياء علوم الدين وهو من أشهر الكتب عبر تاريخ الإسلام، يقول أحمد أخوه: لما كان يوم الاثنين، وقت الصبح توضأ أخي وصلى وقال: عليّ بالكفن. فأخذه وقبله ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة، فانتقل إلى رضوان الله قبل الإسفار».
وكانت وفاته ـ رضي الله عنه ـ عام ٥٠٥ هـ في مشهد وقبره هناك معروف يزار.
انظر مقدمة شرح سراج الطالبين للكديري ص ٩ .

«فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها»[1].

أرأيت أي جنة يعيشها أولئك الذين أحبُّوا النبي ﷺ؟

أعلمت كيف هي الطريق إلى صحبة رسول الله ﷺ في القرن الواحد والعشرين؟

نِعْمَ المحبةُ يا سؤلي محبتُكُم حبٌّ يقود إلى خيرٍ وإحسانِ

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٢٥٢.

الفصل الرابع

ولكن ... هل يمكن تعليم الحب؟

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

وهذا أمر من الله تعالى بحب رسول الله ﷺ حتى يكون مع الله تعالى أحب من كل محبوب.

وقال سيدنا رسول الله ﷺ لعائشة في حق زيد رضي الله عنه:

«أحبيه فإني أحبه»[2].

وقال ﷺ لفاطمة في حق عائشة: «يا بنية ألا تحبين ما أحبه، قالت: بلى، قال: فأحبي هذه»[3].

وقد أمر ﷺ بحب الأنصار وبحب علي والحسن وغيرهم وببغض المنافقين والكفار..

فظاهر هذه النصوص يفيد أن الحبَّ يمكن اكتسابه بالتعليم والمحاولة كسائر الطاعات، وإلا لما أمر الله به ورسوله ﷺ.

إشكال:

وههنا إشكال، إذ من المقرر شرعاً أنه لا يجوز التكليف بالأمور الغريزية،

---

(١) سورة التوبة آية (٢٤).

(٢) رواه أحمد عن عائشة.

(٣) رواه مسلم.

كالحب والبغض، والفرح والحزن، والانفعال والشهوة، وما إلى ذلك، فإن هذه كلها مشاعر فطرية تسريّة، تستولي على النفس بدون إرادة في دفعها أو جلبها.

فأنت لا تستطيع أن تحب إنساناً، لمجرد أن تؤمر بحبه، ولا تبغضه لأنك أمرت بذلك، بل الحب والبغض عملية نفسية معقدة، لا خيار للإنسان فيها، ولا ينفع معها أمر ولا نهي.

فكيف إذن نؤمر بحب رسول الله ﷺ، وكيف يبقى قبول إيماننا موقوفاً على محبته ﷺ، وكيف يأمر ﷺ بحب أشخاص معينين، إن كان ذلك كله غير جائز شرعاً ولا عادةً.

والجواب عن هذا، أن التكليف بالحب والبغض وما أشبههما، هو في الحقيقة تكليف متوجه لمتعلّقات ومسببات الحب والبغض، لا لنفس الحب والبغض.

فأنت حين تسمع قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾[1] لا تفهم من ذلك أن الله ينهاك عن نفس الفرح بالنعمة، ولا نفس الحزن للمصيبة، لأن الفرح والحزن مشاعر لا يتحكم الإنسان في توليدها.

وإنما ينهاك الله سبحانه عن أن تغفل عن حقيقة أنك عبد زائل، في دنيا زائلة، ينالك فيها مِنَح زائلة، ومِحَن زائلة، وأن من وراء ذلك كله رب لا يحول ولا يزول، هو الذي يتحكم بالزائلات.

---

(١) سورة الحديد: آية (٢٣).

فالفرح الحقيقي هو الفرح بوجدانه، والحزن الحقيقي هو الحزن لفقدانه، فلا يهدّك بعده حزن، ولا يُطيشك فرح، وغفلتك عن هذه الحقيقة هي ما توجه إليه النهي في الآية.

وعندما تسمع رسول الله ﷺ يقول لك: «لا تغضب»[1].

فلا تفهم من ذلك أنك يجب أن تستأصل مادة الغضب من نفسك، فإن هذا محال مع الناس الأسوياء، وإنما المقصود من النهي عن الغضب، هو النهي عن إطلاقه وتفجيره بما لا يأتي بخير، والنهي عن الغضب لأشياء لا توجب غضباً عند العقلاء.

وقد كان ﷺ لا يغضب للدنيا، ولا لما كان لها، ولكنه كان يغضب لله تعالى، فإذا غضب، لم يفعل ولم يقل إلا الحق.

ومن هنا، فلا يصح أن يقال إن الأمر بحبه ﷺ هو أمر بما لا يطاق، ولا يصح أن يقال إن حبه ﷺ غير مقدور بالاجتهاد والاكتساب.

وذلك لأن الأمر بحب رسول الله ﷺ هو أمر بإجالة النظر، وإعمال القلب في محاسنه ﷺ والتفكر في خصائصه، وما جعله الله له من الكمالات وما أجراه على يديه من الخيرات، وكيف كانت أحواله وسيرته ﷺ، وكيف كانت سيرة من حوله معه ﷺ، ومن يفعل ذلك على الصدق والإخلاص في طلب الحق، فلن يملك إلا أن يحبه ويزداد له حباً كلما أكثر من ذكره وأوغل في التعرف عليه.

---

(١) رواه البخاري.

ومن قصَّر أو تهاون في ذلك، فهو كما وصفه ﷺ ناقص الإيمان ويشتد نقص إيمانه كلما ازداد جهله بالنبي ﷺ وقل ذكره له.

وقد قرر الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ أن كل أسباب المحبة ترجع إلى الكمال والجمال والنوال، وهكذا فمهما اطلع المرء على شيء من هذه الخصائص، وقع في حب صاحبها، فإن كانت هذه الخصائص حقيقية غير متوهمة، رأيت صاحبها محبوباً للجمع الكبير من الناس، فكيف بمن اجتمعت فيه كل تلك الخصائص بأعلى درجاتها، كيف لا يُحَب؟

فإذا لم يجد المرء تلك المحبة في قلبه بعلاماتها وأعراضها التي يعرفها المحبّون ـ كما سنذكرها ـ فليعلم أنه مقصّر، وأنه يستطيع أن يتدارك لو أراد، وأن الأمر ـ بعد توفيق الله ـ بيده، وليس الأمر سحراً، ولا هو فوق الاستطاعة، والله المستعان.

الباب الثاني

الطريق إلى حب رسول الله ﷺ

خلطة الحب

«لا ـ والذي نفسي بيده ـ حتى أكون أحب إليك من نفسك»

حديث شريف

والآن وقد قررنا أن الحب ينال بالاكتساب، فما هو طريق اكتسابه؟.

إن من يطالع في أخبار المحبين وكتبهم يجد أنهم يوصون طالب محبته ﷺ بأشياء، وأن من أحسن تحصيل هذه الأشياء يكون قد حصّل الخلطة السحرية لحبه ﷺ بل إنه بها يحصّل إكسير السعادة، وماء الحياة، حياة القلوب، وحياة الروح.

وهذه الأشياء هي:

١ ـ الدعاء: لأنه مفتاح الوصول لكل مطلوب.

٢ ـ التعرف: بالاطلاع على شمائله وسيرته.

٣ ـ الذكر: بالإكثار من الصلاة عليه.

٤ ـ الزيارة: بالمثول بين يديه ﷺ والتجول في مسجده ومدينته ﷺ.

فلنشرع في المقصود، ولنبدأ ـ مستعينين بالله ـ في فتح الأبواب إلى محبته ﷺ، ولنسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن يَلِجون منها إلى مقام الصدِّيقية حتى نكون في معيته ﷺ دنيا وبرزخاً وآخرة، آمين.

الفصل الأول

الدعـــاء

«ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك»

ابن عطاء الله

الدعاء باب الله الذي منه يدخل العباد على رب العباد، تفتح به المغلّقات وتتيسر به المعسَّرات وتُطوى به المسافات، ولا يحرم من خير الدعاء إلا محروم بعد إذ قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري رحمه الله[2]:

«وأما التضرع إلى الله تعالى ففيه نزول الزوائد، ورفع الشدائد والانطواء في أردية المنن، والسلامة من المحن، فتُعوَّض جزاء ذلك أن يتولى مولاك الدفع عن نفسك في المضارّ، والجلب لك في المسارّ، وهو الباب الأعظم والسبيل الأقوم، يؤثُر مع الكفران، فكيف لا يؤثر مع الإيمان؟ ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ

---

(١) سورة غافر، آية (٦٠).

(٢) ابن عطاء الله، هو أحمد بن محمد، تاج الدين، وترجمان العارفين، كان جامعاً لأنواع العلوم من فقه وأصول وتفسير وحديث، درس في الأزهر وتخرج عليه جماعة كبيرة من الفقهاء والصوفية ومن أشهرهم الإمام تقي الدين السبكي والقرافي، وكان مع ذلك صاحب الكعب الأعلى في علوم الحقيقة والتزكية، قال عن نفسه: قال لي الشيخ أبو العباس المرسي: "الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين"، يريد مذهب أهل الشريعة وأهل الحقيقة، كان لمواعظه أثر بالغ في القلوب، واهتدى على يديه خلق كثير. توفي في القاهرة سنة ٧٠٩، وقبره بالقرافة معروف يزار.

انظر إيقاظ الهمم لابن عجيبة الحسني ص ٩.

أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾[1] أي فأجابكم، وهو الباب الذي جعله الله تعالى بينه وبين عباده، تَرِدُ واردات الألطاف على من توجّه إليه، وتتوالى المنن على من وقف به عليه، ويصل إلى حقيقة العناية من دخل منه إليه، ومتى فتح عليك به، فتح عليك من كل خيراته وأوسع هباته»[2].

نتأمل - يا أخي - في هذا الكلام العالي من هذا الوارث المحمدي، وتذكر أن المعوّل في إجابة الدعاء على الداعي، وأما المدعو - وهو الله سبحانه - فقد ضمن الإجابة للسائلين.

يقول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ:

«إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا أُلهمتم الدعاء فإنّ الإجابة معه».

فلم يبقَ إذن إلا أن ينهض الداعي بشروط الدعاء وآدابه، وفي مقدمة ذلك حضور القلب، والصدق في الطلب، فإن ذلك ركن الدعاء الركين، الذي لا يكون الدعاء دعاءً بغيره، والله سبحانه لا يستجيب لقلب غافلٍ ساهٍ.

وتذكر - يا أخي - أنك إذا أردت مطلباً من مطالب الدنيا، كعافية من مرض اشتدّ، أو رزق في تجارة تضيّق، أو تيسير لزواج تعسّر أو طلب لولد تأخر، فإنك لا تكاد تهدأ من مناجاة الله ودعائه لييسر ذلك المطلب، وتسأل الله حين تسأله وقلبك مستغرق في شهود ضعفك وفاقتك وافتقارك إلى الله، وتبدأ تتملق إلى الله، وتتذلل إليه، وتتوسل إليه بصفات رحمته وكرمه وجوده، وما

---

(١) سورة الإسراء، آية (٦٧).

(٢) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية: ص ١٠٥.

استطعت من أوصاف الثناء عليه، والتقديس لذاته، وتراقب في ذلك أشرف الأوقات وأعظم الصيغ.

تفعل ذلك كله بدون تكلف، وبدون أن يعلمك إياه معلم، لأن من أحسَّ بأهمية ما يدعو الله به، وعلم أنه لا يَخْلُص إليه ما لم ييسره الله له، فلا يحتاج بعد ذلك لمعلم يعلمه كيف يخشع ويتأدب في دعائه.

وإجابة الدعاء بعد ذلك كله متحققة لا محالة لأن وعد الله لا يتخلَّف.

وهكذا، فإذا علمت قدر النبي ﷺ، وعلمت أن سعادتك ونجاتك في الدارين منوطة بحبك لهذا النبي الكريم، وأحسّ قلبك بعظم هذا المطلب، وتحركت همتك لمتابعة من أحبوه ﷺ، فصاروا بمحبته خيرَ الخلق دنيا وآخرة، وقادك ذلك إلى دعاء الله دعاء المضطر الملحّ على النحو الذي سبق ذكره، فلا شك أنك بذلك تكون قد وضعت قدمك على أول طريق الحب له ﷺ.

الفصل الثاني

التعرّف

وعلى تفنّن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

ابن الفارض

لا يمكن للإنسان أن يحب شيئاً من غير أن يتعرف عليه، ولا يمكن للمرء أن يحب رسول الله ﷺ وهو جاهل به غير متعرف عليه.

ورسول الله ﷺ أحبه كل من عرفه، وذلك لما اطلع على صفات جماله وكماله، أحبه أصحابه، وأحبه أهله، وأحبه أعداؤه، وأحبه الصغير وأحبه الكبير، بل أحبته الجبال والحيوانات والنباتات.

ونحن ـ واحسرتاه ـ لم يقدَّر لنا أن نرى من أنواره وجماله، بل إن محمد بن عبد الله عند معظم الناس فينا، ما هو إلا شخصية تاريخية، نمجدها كما تمجد الأمم رموزها التاريخية، من فاتحين وملوك، ومخترعين وأبطال استقلال ونحو ذلك.

وأين هؤلاء من سيدنا رسول الله ﷺ، وأين ما ينبغي أن يكون عليه حبنا له ﷺ، من حبنا لهؤلاء الرموز؟ إنَّ في حبه سعادة الدارين، والفوز بالجنتين، ولا إيمان بغير محبته، ولا نجاة ولا سعادة بغير محبته ﷺ.

فإن حيل بيننا وبينه ـ بأبي هو وأمي ـ بحوائل الأزمان والسنين، فلا ينبغي أن يحال بيننا وبينه بحوائل الغفلة عنه، والجهل بأوصافه البهية، وأحواله السنية، تلك الأحوال والأوصاف التي جعلت كل من عاصره يحبه حباً لا

يصبر معه على فراقه، من ثوبان خادمه ﷺ الذي سقم ومرض من مجرد الخوف من أن يحال بينه وبين النبي ﷺ، إلى الجذع الذي صار يئن أنين الثكلى، لما ترك رسول الله ﷺ الاستناد إليه، بعد أن صنع له المنبر.

فلا حب من غير معرفة، ولا حب مع الغفلة عن جمال المحبوب.

يقول الشيخ عبد الله سراج الدين[1] رحمه الله تعالى، وهو من أكابر عشاق المصطفى ﷺ في عصرنا:

«ولذلك كان من الواجب على المكلّف أن يتعرف إلى جمال هذا الرسول الكريم ﷺ ومحاسنه الخلقية، وكمالاته النفسية والروحية والقلبية والعقلية والعلمية، وذلك لينال مقام محبته الصادقة، لأن المعرفة هي سبب المحبة فكلما زادت المعرفة لمحاسن المحبوب زادت المحبة له»[2].

ومع علمي بأنه يستحيل الإحاطة بمحاسن النبي ﷺ في كتاب واحد، فضلاً عن أن تحيط به صفحات قليلة، إلا أنني آثرت أن أعرض بعض ما قيل في بعض صفاته الشريفة ﷺ، لأحثَّ بما أذكره الهمم للاطلاع على المزيد كما هو مذكور في كتب الشمائل والسيرة وعبارات أهل الولاية والمعرفة.

---

(١) الشيخ عبد الله هو العلامة الفقيه المفسر العالم العامل عبد الله سراج الدين الحسيني الحلبي، ولد في حلب سنة ١٣٤٣ هـ، واحد من أكابر أولياء العصر، قال له الشيخ أحمد الحارون الولي المشهور: «أنت عليك أنظار رسول الله ﷺ وإذا سطع نجمك غطى على الجميع» كان يكثر من توجيه الواعظين لتحبيب الناس بالنبي ﷺ ويقول: معلش خلّ يقولوا إننا مجدوبون في النبي ﷺ، له مؤلفات كثيرة عظيمة النفع أشهرها كتابه: «سيدنا محمد ﷺ» توفي سنة ١٤٢٢، وخرجت حلب كلها لحضور جنازته قدس الله روحه.

انظر كتاب «صفحات من حياة الإمام الشيخ» للدكتور العتر.

(٢) سيدنا محمد رسول الله ﷺ: ص ١١.

أولاً: محاسن صورته الشريفة ﷺ

وأحسنَ منك لم ترَ قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء

خُلِقتَ مبرّءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

حسان بن ثابت

يقول الشيخ عبد الله سراج الدين ـ رحمه الله ـ وهو ممن رؤوا رسول الله ﷺ مرات كثيرة[1]، وكلامه عن صورته ﷺ كلام عالم معاين:

«اعلم ـ علمنا الله تعالى وإياك ـ أن الله خلق سيدنا محمداً ﷺ في أجمل صورة بشرية وأكمل خلقة آدمية، فهو ﷺ مجمع المحاسن المبتدعات، والفضائل والكمالات الخَلقية والخُلقية، وقد أجمعت كلمة الذين رأوه ووصفوه على أنه ﷺ لم يُرَ له مثيل سابق، ولا نظير لاحق»[2].

والتعرف على صورة رسول الله ﷺ مطلب هام، لمن أراد تحصيل محبته ﷺ وسيأتي عند الكلام على كيفية الصلاة عليه ﷺ، بيان أثر الصورة في حصول الصلة به ﷺ.

يقول الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله:

---

(١) كلما ذكره ابن أخته، وصهره على ابنته، الشيخ العلاّمة الدكتور نور الدين عتر، ذكره في ترجمته للشيخ في كتاب "صفحات من حياة الإمام شيخ الإسلام عبد الله سراج الدين". كما سمعته منه مرات عديدة، ومن ذلك أثناء ترجمته للشيخ عبد الله في مجلس الوفاء الذي يعقد أول خميس من كل شهر قمري في مسجد التوبة في دمشق العامرة، ويترجم فيه لأعيان الشام من قبل أخص التلامذة والمقربين للمترجَم له.

(٢) كتاب سيدنا محمد ﷺ: ص ١٣.

«إن اطلاع الإنسان على أوصافه العظيمة ﷺ، وشمائله الكريمة، ليعطي صورة علمية، تنطبع في القلب، وترتسم في المخيلة، كأنه رأى محبوبه ﷺ.

ولهذا كان ﷺ يذكر لأصحابه أوصاف الرسل قبله، ويقرب إليهم ذلك بأشباههم، حتى إنهم يصيرون بحال كأنهم قد رأوهم، وذلك أقرب سبيل للتعرف عليهم، وأقرب طريق للتحبب إليهم»[1].

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليلة أسري بي لقيت موسى ـ قال الراوي: فنعته النبي ﷺ ـ رَجِلَ الرأس، كأنه من رجال شنوءة» يعني أن شعره ناعم، ويشبه رجال قبيلة شنوءة.

قال ﷺ: «ولقيت عيسى ـ فنعته فقال: ـ رَبْعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس (حمام). ورأيت إبراهيم: وأنا أشبه ولده به»[2].

ولذلك فقد كان صغار الصحابة والتابعون يكثرون السؤال عن صفة رسول الله ﷺ وصورته.

يقول سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما:

«سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصَّافاً ـ عن حِلْية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به»[3].

فانظر إلى قوله: «وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به» فإنَّ له دلالة واضحة على أهمية استحضار الصورة في تحصيل المحبة والصلة.

---

(١) سيدنا محمد ﷺ: ص ١٢.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي.

وخلاصة ما جاءت به الأحاديث من وصف صورته ﷺ، أنه كان على الصفات الآتية:

كان ﷺ رَبْعة من الرجال، (أي إنه معتدل الطول)، أبيض البشرة، وبياضه فيه شيء من الحُمرة.

شعره أسود، ليس بأجعد ولا هو ناعم، بل بين هذا وذاك، ويبلغ شعره إلى شحمة أذنيه، وربما وصل إلى كتفيه، يفرقه ﷺ من منتصف رأسه إن كان طويلاً، وإلا فيرسله.

جبينه ﷺ واسع، وحاجباه دقيقان غير متصلين، وبينهما عرق وريدي، كان يظهر على البشرة عندما كان يغضب فداه أبي وأمي.

وكان ﷺ شديد سواد العين، طويل الأهداب، مستقيم الأنف، فلا ضخامة فيه ولا اعوجاج.

وأما فمه ﷺ فلم يكن ضيقاً، أسنانه منتظمة لا تراكب فيها ولا تباعد، يتعاهدها بالسواك كثيراً، فكان ﷺ إذا ابتسم ظهرت أسنانه كأنها حبات اللؤلؤ.

وكانت لحيته ﷺ سوداء كثيفة وطويلة، مع وجه مستدير.

وكان ﷺ ممتلئ الجسم، ليس بالنحيل، ولا هو بصاحب بطن، بل كان صدره مستوياً مع بطنه، مع عرض في الصدر والكتفين، وضخامة في الأطراف على هيئة تظهر قوة وتماسكاً وتناسقاً.

وربما انكشف الثوب عن صدره وبطنه ﷺ، فيكشف من جسده بياضاً نيِّراً، مع شعر في أعلى الصدر، دون الثديين والبطن، وشعر على المنكبين، وشعر كالخط الرفيع، يصل بين نحره وسرته ﷺ.

إذا مشى ﷺ يمشي سريعاً، فإذا أراد أن يلتفت، التفت بكله، أكثر نظره إلى الأرض، وأكثر ضحكه التبسم، كثير الصمت، ينظر إلى ما يهمه بطرف عينه.

إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وكان كثيراً ما يضرب ببطن كفه اليمنى، بطنَ إبهامه اليسرى في أثناء كلامه ﷺ.

يُعرَف عدم رضاه بإعراضه وتحويله لوجهه، ويعرف رضاه باستنارة وجهه وغضّه لطرفه ﷺ[1].

وقد أجمع كل من رأى رسول الله ﷺ على صفتين ظاهرتين فيه ﷺ:

الأولى: أن وجهه كان أشبه شيء بالشمس والقمر، لما فيه من الإشراق والأنوار والبهاء.

فأبو هريرة رضي الله عنه يقول: «ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه»[2].

والربيِّع بنت معوِّذ تصفه لأحد التابعين فتقول: «يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة»[3].

وهند بن أبي هالة يقول: «كان ﷺ فخماً مفخَّماً، يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[4].

وجابر بن سمرة يقول: «رأيت وجه رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان

---

(١) انظر الأحاديث الواردة في صفته ﷺ عند الترمذي والبيهقي وأحمد وغيرهم.

(٢) رواه أحمد وابن حبّان.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه الترمذي.

(مقمرة) وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر»[١].

ووصفت امرأة من هَمَدان حجت مع النبي ﷺ وجهه الشريف فقالت: «كالقمر ليلة البدر، لم أرَ قبله ولا بعده مثله»[٢].

وكعب بن مالك ﷺ يقول: «كان ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»[٣].

فتذكر يا أخي هذه الخصيصة من خصائصه الثابتة له قطعاً ﷺ، فإنها ستعينك في كل مرة تصلي على رسول الله ﷺ.

الثانية: ريح الطيب التي كانت تنبعث منه ﷺ تلقائياً، ولو لم يمس الطيب، وقد ذكر القاضي عياض عن بعض أهل العلم أن تلك الريح منه ﷺ كانت صفة له، وريحاً لعرقه الشريف، مع كونه كثير التطيب، ودليل ذلك:

يقول أنس ﷺ: «ولا شممت مسكاً قط، ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»[٤].

ويقول أبو جُحَيفة ﷺ: إن النبي ﷺ توضأ وصلى الظهر، ثم قام الناس فجعلوا يأخذون يده، فيمسحون بها وجوههم، فأخذت يده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك[٥].

وعن أنس قال: دخل علينا النبي ﷺ فقال عندنا (نام القيلولة) فعرق،

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البيهقي.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه مسلم والترمذي.
(٥) رواه أحمد.

فجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «يا أم سُليم ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقك، نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب[١].

وعن أم عاصم امرأة عُتْبة بن فَرْقَد السُلَمي، قالت: كنا عند عتبة أربع نسوة (أي زوجات له) فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبتها، وما يمس عتبة الطيب، ولهو أطيب ريحاً منا، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عُتْبة، فقلت له يوماً: إنا لنجتهد في الطيب، ولأنت أطيب ريحاً منا، فمَّ ذلك؟

فقال عُتْبة: أخذني الشِرى (نوع من الحساسية) على عهد رسول الله ﷺ، فأتيته فشكوت ذلك إليه، فأمرني أن أتجرد، فتجردت عن ثوبي وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي، فنفث رسول الله ﷺ في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده، فعبق بي هذا الطيب من يومئذ[٢].

وروى أبو هريرة ﷺ أن رجلاً استعان بالنبي ﷺ على تجهيز ابنته، فلم يكن عنده شيء، فاستدعى ﷺ بقارورة، فَسَلَت (أخذ) فيها من عرقه وقال له: مرها فلتتطيب به، فكانت إذا تطيبت به، شمَّ أهل المدينة رائحة ذلك الطيب، فسموا بيت المطيبين[٣].

وعن وائل بن حُجْر أن النبي ﷺ أُتي بدلو ماء فشرب منه، ثم مجَّ (تفل) في الدلو ثم في البئر ففاح منه مثل ريح المسك ﷺ[٤].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه الطبراني وأبو يعلى.
(٤) رواه أحمد.

ثانياً: محاسن اخلاقه الشريفة

مشاهد من حياة الحبيب ﷺ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[سورة: ن]

عندما شرعت بكتابة هذا الفصل أصابتني حيرة شديدة، وتردد كبير، إذ كتب السيرة والشمائل مشحونة بمكارم أخلاقه، وهي لا تحصى كثرةً، ولا تكاد تجد فيها شيئاً مما يمكن أن تُمِرّه بدون ذكره، فما عساي أذكر ـ بعد ذلك ـ من أخباره ﷺ وما عساي أدع؟

وتذكرت سؤال عروة بن الزبير ﷺ لأم المؤمنين عائشة، عن أعجب شؤون النبي ﷺ التي اطلعت عليها (أي أكثر ما أعجبها من سيرته وأخباره ﷺ) فقالت السيدة عائشة:

«وأي شأنه لم يكن عجباً؟»

إيْ والله، أيْ شأنه لم يكن عجباً ـ بأبي هو وأمي ـ لقد كان متفرداً في كل شيء، أفتعجب من حاله في عبادته، أم من حاله في جهاده ودعوته، أم تعجب من حاله مع أزواجه في زمان كانت النساء تعامل كالبهائم، أم تعجب من حاله من رحمته بالطير والدواب، في زمان كان الناس يضربون فيه رقاب بعضهم بعضاً، وكأنهم للفتك والقتل خُلِقوا، فلا يأسفون ولا يشفقون، أَلِفَتْهم القسوة وأَلِفوها.

أم تعجب من حاله مع أعدائه، وحاله مع أصحابه، وحاله في ليله، وحاله في نهاره، وضحكه، وبكائه، وجده ومزاحه.

لقد كان عَلَماً ومعلماً في كل أحواله، أعجوبه في كل أخباره.

وأنا أدعوك ـ أخي القارئ ـ لتتأمل معي في هذه المواقف التي اخترتها ـ ولا أقول تخيرتها ـ وتجول معي بقلبك وعقلك في هذه المشاهد من معالم شمائله وسيرته، وتذكر أنك لن تحب شيئاً ما لم تتطلع من هذا الشيء على مكامن الجمال فيه، فحينئذ يتعلق قلبك بهذا الشيء، وتبدأ بتذوق ما يتذوقه المحبون من أعراض الحب وألوان الشوق.

مشهـــد

وإذا صحبت رأى الوفاء مجسّماً في بُردك الأصحابُ والخلطاءُ

وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمةٌ ووفاءُ

أحمد شوقي

تزوج رسول الله ﷺ السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكان له من العمر خمسٌ وعشرون عاماً، وكانت هي في الأربعين، أرملة ذات ولد من زوجيها اللذين ماتا عنها قبل زواجها برسول الله ﷺ.

ولما توفيت ـ رضي الله عنها ـ كانت في الخامسة والستين، ولم تشهد ما فتح الله به على زوجها رسول الله ﷺ، بل كانت من المسلمين الأوائل الذين أعطوا للدعوة كل دنياهم ثم قضوا نحبهم، ولم ينالوا فتيلاً ولا قطميراً، إلا الاضطهاد والدموع والبذل والألم.

ثم إن رسول الله ﷺ تزوج بعدها النساء، وكانت عائشة أحبَّ نسائه إلى قلبه، شابة في ريعان الشباب، جميلة، بكرٌ (ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً سواها)، ذكية، أديبة، أريبة، تحفظ أشعار العرب وأخبارهم، وفوق هذا وذاك، كانت ابنة أحب أصحابه إليه، أعني الصديق أبا بكر رضي الله عنه.

ولكن النبي ﷺ بالرغم من ذلك كله، لم ينس تلك العجوز التي كانت تكبره بخمسة عشر عاماً، وقد سقطت أسنانها، ولم ينس أنها آمنت به وقد كذبه الناس، وواسته بمالها إذ حرمه الناس، وأنها تركت مالها وبيتها وما كانت فيه من البحبوحة والغنى، ودخلت معه شعب أبي طالب حين حاصرته قريش.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرْت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وكان إذا ذبح الشاة، فيقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت»[1] ويذكر ﷺ فضائلها.

وتقول رضي الله عنها:

استأذنت هالة بنت خويلد (أخت خديجة) على رسول الله ﷺ، فتذكر استئذان خديجة، فارتاح ﷺ، وقال: اللهم هالة (أي ليتها تكون هالة).

تقول عائشة:

فغِرْت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين (أي: ساقطة الأسنان) هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها.

فغضب ﷺ وقال: ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء[2].

ولما أسر أبو العاص (زوج زينب بنت رسول الله ﷺ) في معركة بدر ـ وكان كافراً ـ أرسلت زينب صرة فيها فداء أبي العاص من الأسر.

فلما فتح النبي ﷺ الصرة، وقعت عيناه على قلادة كانت فيها، فما إن رآها ﷺ حتى اغرورقت عيناه، وهاجته الذكريات، وأخذته رقة شديدة لم يستطع أن يخفيها.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

إنها قلادة خديجة التي كانت أهدتها إلى ابنتها زينب ليلة عرسها.

وساد الصمت بين الصحابة أمام هذا المشهد العاطفي المؤثر، ثم قطع هذا الصمت صوت رحيم جليل، صوت سيدهم وحبيبهم ﷺ ليقول: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا.

هكذا، بصيغة الالتماس، لا بصيغة الأمر، وهو ﷺ لو أمرهم، لما كان ينبغي أن تكون لهم الخيرة من أمرهم، فقالوا رضوان الله عليهم:

نعم يا رسول الله نفعل.

فردّوا إليها الفداء وأطلقوا زوجها[1].

أي وفاء هذا، أي رقة، أي حنان، أي رحمة؟!

إن الملوك والسادة يتزوجون النساء بغير حساب، ويتخيرون من النساء الأجمل، فيتمتعون بها، وينجبون منها، ثم لا عليهم بعد ذلك إن هجروها إلى من هي أجمل منها وأشب، ومن ذا الذي يلومهم؟ إنهم ملوك، كل النساء ترغب بالاقتران بهم ولو لساعة، ولتُنس أسماؤهن بعد ذلك، فضلاً عن أن تنسى ذكراهن.

وأما سيدنا رسول الله ﷺ، فلم ينس زوجه العجوز حتى توفي، ولم ينس صوتها ولا طريقة استئذانها وكلامها، ولا أسماء صديقاتها، ولا ثيابها ولا قلائدها، ولم ينس ساعات صبرها ومواساتها، لم تنسه هموم الدعوة وأعباء الأمة ذلك كله، فظل يكرر في كل مناسبة: خديجة، خديجة، قياماً بحقها ووفاء بعهدها.

روى الحاكم عن عائشة قولها:

---

(١) انظر مجمع الأحباب (مختصر حلية الأولياء): ١/ ٤٣١.

جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال: كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف أنتم بعدنا؟ فقالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فتعجبت السيدة عائشة من هذا الاهتمام منه ﷺ بعجوز لا تعرفها، فقالت للنبي ﷺ بعد خروج العجوز: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال!؟

فقال ﷺ: «يا عائشة، إنها كانت تأتينا في زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»[1].

نعم إن حسن العهد من الإيمان يا سيد المؤمنين.

وأما الأنصار، أولئك الذين آوَوا ونصروا، وبذلوا في سبيل الله أرواحهم وأموالهم، فلم ينسَ رسول الله ﷺ صنيعهم معه أبداً، فكم كان ﷺ يدعو لهم ولأولادهم ولأولاد أولادهم، ويرغِّب الناس في حبهم والإحسان إليهم.

ولما كان رسول الله ﷺ في مرض موته، لم يُنْسِه مرضه أصحابه من الأنصار، فتحامل على نفسه، وصَعِد المنبر، وكان ذلك آخر صعود له، وآخر مرة جلس فيها للناس، فوقف ﷺ منهكاً، وقد ظهرت عليه آثار المرض، وقد عَصَبَ رأسه الذي كان أكثر ما كان يشتكي منه في مرض موته.

لقد كان سيدنا ﷺ إذا صعد المنبر كأنه الأسد الهصور، فيعلو صوته ويحمرُّ وجهه، ويشير بيده حتى كأنه منذر جيش.

وأما اليوم فقد بلغ به الوجع والمرض كل مبلغ، فبدى متثاقلاً، بالكاد يقوى على الكلام.

---

(١) رواه البيهقي والحاكم.

وتداعى الناس، وأنصت الجميع لصوت سيدهم الخافت، ليعرفوا أي شيء ذاك الذي حمل رسول الله ﷺ على صعود المنبر وهو على هذه الحال، وأي نبأ ذاك الذي يريد أن يبثه للمسلمين.

أنصتوا إليه، فإذا به يحمد الله ويثني عليه، ثم يقول:

«أما بعد، فإن هذا الحي من الأنصار يقلُّون ويكثر الناس، فمن ولي من أمة محمد، فاستطاع أن يضر فيه أحداً، أو ينفع فيه أحداً، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»[1].

لقد كان ﷺ يخشى أن يلحق بالأنصار شيء من الضيم أو الأذى، مع كثرة الداخلين في الإسلام، ممن قد لا يعرفون قدر الأنصار ومنزلتهم، وما قدموه للإسلام ونبي الإسلام ﷺ، فأراد ﷺ أن ينتقل من هذه الدنيا وهو مطمئن إلى أن أتباعه لن يقصروا في رد الجميل للأنصار، وأنهم لن يصيبوا منهم شيئاً يكرهونه من بعده ﷺ.

وكأني به ـ فدته روحي ـ أب شفوق رحيم، لم ينسه الموت ما قد ينزل بأولاده من بعده، فلا يفتأ يوصي من حوله بهم، ويشدّد عليهم في رعايتهم، ويأخذ عليهم المواثيق في عدم التفريط بحقهم.

بأبي هو وأمي من أب دونه كل الآباء، ووفيٌّ دونه كل الأوفياء.

(١) رواه البخاري.

مشهد

«من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري،
ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي،
ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي»
رسول الله ﷺ

تحدثنا كتب السيرة أن امرأة من بني مخزوم من قريش، سرقت على عهد النبي ﷺ، فأمر ﷺ أن تقطع يدها، فاهتمت قريش لهذا، وعظم ذلك عليها، وبنو مخزوم من سادة قريش وأشرافها وعِلْية القوم فيها.

فتدارسوا الأمر، وتباحثوا فيه، واجتمعوا على أن يكلموا رسول الله ﷺ إذ إن قطع امرأة من سادة مكة سابقة لم تعهد، ولم تجرِ بها عادة عرب ولا عجم، ولم يُسمع أن سيداً أو شريفاً يُعاقَب بهذه العقوبة الصارمة، كما يُعاقَب العبد لا فرق بينهما، إن في هذا قلباً للأعراف، وإغراءً للعبيد والمساكين بالسادة والأشراف، وإن فيه ذلاً ما بعده ذل، ومهانة ما بعدها مهانة.

هكذا كان أهل الأرض كلهم يفكرون، لا أهل مكة فقط.

ثم نظروا وتساءلوا بينهم: ولكن من ذا الذي يجترئ أن يكلم رسول الله فيها، وقد عرف الناس أنه كان لا يقوم لغضبه قائم إذا انتُهك حد من حدود الله؟

فأجمعت كلمتهم على أسامة بن زيد رضي الله عنهما، إذ هو حِب النبي ﷺ وابن حبه، ولئن نزل غضبه بالناس كلهم فلن ينزل بأسامة.

ونزل أسامة عند رغبة سادة قريش وأتى إلى النبي ﷺ ليكلمه في شأن تلك

المرأة، وما سيثيره قطعها من فتنة، وكم سيؤذي ذلك أشراف قريش، فما إن سمع النبي ﷺ من أسامة ذلك، حتى تغير لون وجهه الشريف وكان ﷺ أبيض الوجه، فإذا غضب لم يُخْفِ بياضُ وجهه حمرَةُ الغضب التي تعلو وجهه الشريف، وينتفخ بين عينيه عرق لشدة الانفعال الذي يثيره الغضب لله، ولم يكن ﷺ يغضب إلا لذلك، ثم صرخ ﷺ في وجه الحبيب بن الحبيب، أسامة بن زيد وقال:

«أتشفع في حد من حدود الله؟!...

وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

إن من يستعرض مواقف رسول الله ﷺ في حياته الحافلة بالفرائد والغرائب من الكمالات، ليعلم أنه ﷺ لم يكن ليتساهل في إحقاق الحق، حتى ولو كان على نفسه، وليس على فاطمة ابنته فحسب.

روى ابن إسحاق وغيره أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يسوِّي صفوف المقاتلين من المسلمين يوم بدر، وفي يده سهم، فجعل ﷺ يعدِّل بذلك السهم من يراه متقدماً أو متأخراً عن الصف، فمرَّ ﷺ بواحد من هؤلاء وهو سواد بن غَزِيَّة ﷺ، فضرب بالسهم على بطنه كي يعتدل في موقفه، فنظر سواد إلى النبي ﷺ، وقال:

أوجعتني، فأقدني. (أي دعني أضرب بطنك كما ضربت بطني، فأوجعك كما أوجعتني).

فبالله عليك يا من تقرأ، أفلا يثير هذا الكلام غضب الحليم؟

---

(١) متفق عليه.

أَلقِائد الجيش يقال: دعني أضربك كما ضربتني؟

أَوَ ضربة بالسهم لتسوية الصفوف تستدعي القصاص والقَوَد؟

ثم أهذا موقف يقال فيه مثل هذا الكلام، والمشركون يريدون أن ينقضُّوا على المسلمين ليستأصلوهم في أول معركة بين الإسلام والكفر؟

ولكنَّ كل هذا لم يدر في خَلَد معلم الناس الخير ﷺ.

إن من لا يتردد في إقامة الحد على ابنته لو سرقت، لا يتردد في الاقتصاص من نفسه ولو كان رسول الله ﷺ.

فانظر إلى رسول الله ﷺ يلتفت إلى سواد وهو يعرض مظلمته، فيتوقف ﷺ عن متابعة سيره بين الصفوف.

ثم يرجع إلى سواد وقد سمع شكواه.

ثم يكشف عن بطنه الشريف - بأبي هو وأمي - ويقول لسواد: اقتد.

فيخرج سواد من الصف، ويقع بوجهه على بطن رسول الله ﷺ يتمسح به ويقبله ويشمه.

فيقول ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟

فيقول ذلك الموفَّق السعيد:

يا رسول الله، حضر ما ترى (يعني القتال) فأردت أن يكون آخر العهد أن يمسّ جلدي جلدك.

رضي الله عنه، وجعلنا على قدمه في الحب لسيدنا محمد ﷺ، وأكرمنا بدنوٍّ من جسده الشريف كذلك الدنوّ، وبحب كذلك الحب.

إن عظمة الرجال وعدلهم لا تظهر في استيفاء الرجل لحق الآخرين من

نفسه، وهو مناظر لهم في الجاه والقوة، إن لم يكن دونهم، ولكن العظمة تظهر عندما يكون الرجل في موقف يملك معه أن يعلأ خصمه بقدمه لو أراد، من غير أن يلومه أحد، أو يعتب عليه أحد، أو يزري به عرف، أو تنبو عنه عادات، ولكنه مع ذلك يقف مطأطئاً رأسه لخصمه، خاضعاً للحق، مستسلماً لحدود الله، له أو عليه، حتى لو قضت أن يضرب الجنديُّ، القائدَ الرسول.

فانظر وتأمل، كيف ـ بربك ـ لا يُحَبُّ رجل كهذا؟

مشهد

ما نال لا نالا إلا لي تشهده لولا التشهد كانت لاءه نعم

عم البريّة بالإحسان فانقشعت عنها الغياهب والإملاق والعدم

الفرزدق

يحدثنا سهل بن سعد من أصحاب النبي ﷺ أن امرأة أرادت أن تتقرب إلى رسول الله ﷺ بشيء، فحاكت بردة (عباءة)، ثم أتت إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، نسجتها بيدي لأكسوكها.

فأخذها ﷺ محتاجاً إليها، ثم خرج على الناس وإنها لإزاره، وإذا برجل من بين الناس يقول لرسول الله ﷺ: اكسنيها، ما أحسنها!

فقال ﷺ: نعم، ثم دخل ﷺ حجرته، فخلع عنه البردة، وستر جسده بشيء آخر وأرسل البردة إلى السائل.

فلما رأى الناس ذلك، أكثروا الملامة لذلك الرجل، وقالوا له: ما أحسنت، لبسها ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً فقال:

إني - والله - ما سألته لألبسها، وإنما سألته لتكون كفني.

يقول سهل: فكانت تلك البردة كفنه لما توفي ﷺ[1].

وأنا أريدك - يا طالباً لمحبته - أن تتأمل معي في قول سهل: «فخرج إلينا ﷺ وإنها لإزاره».

---

(١) رواه البخاري.

والإزار هو اللباس الذي يستر به الرجل عورته، كما ترى في ثياب الإحرام، فما يستر به المحرم نصفه الأسفل يسمى إزاراً.

ثم تأمل في الطريقة التي تجاوب بها رسول الله ﷺ مع سؤال السائل لتلك البردة التي كان ﷺ يستر بها ما لا بد من ستره من جسده الشريف، لقد قال: «نعم»، بلا تردد، ولا تأنف من هذا السؤال البارد، من رجل لم يخفَ عليه أن هذه البردة التي طلبها لم تكن للترف والتباهي، ولكنها كانت لستر العورة، وهل بعد انكشاف العورة حاجة؟ وهل الثوب الذي يغطيها، ولا يغطيها سواه، هو ثوب يستغنى عنه.

أفكان رسول الله ﷺ يُلام لو قال للسائل: يا هذا، أفلا ترى أنني أشد حاجة إليها منك؟ أوَأعجبك حسنها، وغاب عنك أنني لا أُترِف بها نفسي، وإنما أواري بها جسدي عن الناس؟

لم يقل ﷺ شيئاً من ذلك، بل دخل حجرته، فخلع البردة، وطواها، ثم بعث بها لمن سأل، بلا عتاب، ولا تضجر، ولا تغير في لون الوجه يكشف عن تبرُّم وتضايق، ولم يكن هذا لو حصل ليخفى عمن كان حاضراً.

وأما من حضر ذلك الموقف من الناس، فقد سارعوا جميعاً للوم ذلك الرجل، وقالوا له: سألته وأنت ترى حاجته، وقد علمت أنه لا يردّ سائلاً؟

لقد شاع ذلك بينهم، كل الناس تعرف أن محمداً ﷺ لا يرد سائلاً.

كل الناس تعرف أن كلمة «لا» لشيء من الدنيا هي خارج القاموس النبوي.

كل الناس تعرف أنه ﷺ كان كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

«ما سئل شيئاً قط فقال لا»[١].

وأنه كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

«كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»[٢].

وأنه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«أجود الناس بالخير من الريح المرسلة»[٣].

وأنه كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

كان الناس يسألونه فيعطيهم، ثم يسألونه فيعطيهم، ثم يسألونه فيعطيهم، حتى يقوم وما عنده شيء[٤].

وأنه كما قال بلال رضي الله عنه:

كان إذا أتاه الإنسان مسلماً، فرآه محتاجاً، يأمرني فأستقرض، فأشتري له البردة وأكسوه وأطعمه[٥].

وأنه كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أتاه سائل فقال له ﷺ: «ما عندي شيء، ولكن ابتع علي (أي اشترِ على حسابي) فإذا جاءني شيء قضيته».

ولما أشفق عمر على رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، ما كلفك

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه أبو داود والبيهقي.

الله ما لا تقدر عليه، كره ﷺ قول عمر، فقام رجل وقال: يا رسول الله، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً.

فتبسم ﷺ وعاد البشر إلى وجهه فرحاً بقول الأنصاري ثم قال: «بهذا أمرت..»[1].

وهكذا آلت البردة للرجل سعيد الحظ، فكفّن بها عند موته.

وأما المرأة فعادت لتحيك للنبي ﷺ بردة سواها، ولكن أجل النبي ﷺ لم يمهلها، فلحق ﷺ بربه قبل أن تفرغ منها.

(١) رواه الترمذي.

مشهد

قلت: يا رسول الله ـ جعلني الله فداءك ـ كلْ متكئاً فإنه أهون عليك،

فاصغى ﷺ برأسه حتى كاد أن يصيب جبهته الأرض، فقال:

«لا، بل آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

عائشة رضي الله عنها

كان ﷺ يجمع في يديه سلطان الدين والدنيا، فهو المشرِّع، وهو الإمام، وهو الحاكم، وهو القائد.

وكل صفة من هذه الصفات، من شأنها أن تجعل للنبي قدراً من أبهة المُلْك، وعظمة السلطان، وليتخذ ﷺ الحرس الشخصي الذي يرافقه، ويدفع عنه تطفل المتطفلين وأذى المتربصين، ويتخذ الحُجَّاب الذي ينظمون له دخول الناس عليه في حوائجهم وأقضيتهم، ويتخذ لنفسه داراً وسيعة ـ ولا أقول قصراً منيفاً ـ لإدارة شؤون الدولة، ولاستقبال الوفود وضيافتهم ومحاورتهم، ويتخذ لكل هذا الخدم والحشم والخيل والجراري وغير ذلك مما كان معروفاً عند ملوك ذلك الزمان وسادة القبائل فيه.

هكذا كانت الصورة في زمانه، وما تزال كذلك في زماننا حتى مع مدير صغير لشركة مغمورة.

ولكن محمداً ﷺ لم يكن من شيء من ذلك بسبيل، كان يكره ذلك كله ويستثقله، فإذا مشى معه أصحابه كره أن يسيروا خلفه، على عادة الأتباع مع العظماء، بل يدفعهم ليكونوا أمامه ويمشي هو خلفهم.

وكان يكره أن يتميَّز، عن أصحابه بشيء من لباس أو مكان، ويقول: إن الله يكره أن يتميز العبد من أصحابه.

فإذا دخل على مجلس لأصحابه، كره أن يقوم له أحد منهم، وكره أن يجلس في صدر المجلس، بل يجلس حيث يجد سعة، ولم يُرَ قطّ ماداً رجليه بينهم، حتى يدخل الداخل على مجلس النبي ﷺ فيسأل: أيكم محمد؟[1] وذلك لتواضعه وعدم تميزه عن أصحابه ﷺ.

فإذا مرَّ بجماعة من الصبية وقف وسلم عليهم وتكلم معهم[2].

وربما أتته الخادمة من خدم أهل المدينة، فتأخذ بيده ﷺ فما تتركها حتى تذهب به حيث شاءت ليقضي لها حاجتها، أو ليشفع لها عند سيدها[3].

ويسلم عليه الرجل فلا ينزع يده، حتى يكون ذاك الرجل هو الذي ينزع يده من يد رسول الله ﷺ[4].

وكان خدم المدينة يأتون إليه بعد صلاة الفجر بآنيتهم من الماء، كي يشرب منها أو يغمس يده فيها طلباً لبركته ﷺ، فربما جاؤوه بالماء البارد في الليلة الشاتية، فلا يرد أحداً منهم، إلا ويغمس يده الشريفة في إنائه، أو يغسل بها وجهه وذراعيه[5].

ويحدثنا عبد الله بن الحارث ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يصفّ بعض

---

(١) هذه الصفات مروية في أحاديث عند البخاري وأبو داود والترمذي.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الترمذي وأبو داود.

(٥) رواه الترمذي وأحمد.

الصبيان، ويقول لهم: من يسبق إليَّ فله كذا وكذا، فيتسابقون إليه ﷺ طمعاً بالجائزة، حتى إذا وصلوا إليه ﷺ، ألقوا أنفسهم على ظهره وصدره، فيقبلهم ويعانقهم[1]، كما يفعل الأب الحنون مع أطفاله.

ويحدثنا عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه إنه كان لرسول الله ﷺ إناء كبير يوضع فيه الطعام، يحمله أربعة رجال، فجيء به يوماً إلى من حضر مجلس النبي ﷺ، فتحلقوا حوله، فلما كثروا، جثا النبي ﷺ على ركبتيه وقعد ليأكل معهم.

فقال أعرابي كان بينهم: ما هذه الجلسة؟

لقد استعظم هذا الأعرابي تلك الجلسة من سيد القوم، أيجلس معهم، وفيهم عامة الناس على هيئة كهيئتهم؟

إنه لم يخصَّ نفسه بقصعة خاصة له ولكبار الضيوف، ولم تهيأ له الطنافس والوسائد ليجلس جِلْسة تليق بمقامه، بدلاً من أن يزاحمه الناس بأرجلهم، لم يفعل شيئاً من ذلك، بل جثا على ركبتيه، على هيئة يأنف منها كثير من البسطاء فضلاً عن السادة والكبراء.

يقول عبد الله بن بُسْر: فقال ﷺ لذلك الأعرابي:

«إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً»[2].

لقد كان ﷺ يطرب حين يستحضر عبوديته لله، ويتفانى في إظهار الخضوع والتذلل له سبحانه، ويأنف من كل مظهر مخالف لهذا الخضوع من مظاهر العظمة والكبرياء.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه.

ومهما أردت أن تتخيل صورة النبي ﷺ في مجتمع المدينة المنورة فلن تستطيع أن تتخيله - بحسب ما لدينا من مرويات - إلا بسّاماً، ودوداً، يجيب دعوة العبد، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويمشي مع المساكين والأرامل ويأكل مِنْ أكل الناس ويشرب من شرابهم، يلاطف الصغير، ويمازح الكبير، ويحلم عن الجاهل، وفي كل واحدة من هذه الصفات آثار وأحاديث كثيرة تكمّل لك صورة من قال الله فيه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

مشهد

«ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله لينتقم لله»

عائشة رضي الله عنها

استمرت دعوة النبي ﷺ لقريش قريباً من عشرين عاماً، منذ أن كان بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة، ليرجع بعد ذلك إلى مكة فاتحاً، ولتدخل قريش في الإسلام.

ولكنها كانت عشرين سنة عجافاً، أذاقت فيها قريشُ رسول الله ﷺ من صنوف الإيذاء والاضطهاد، ما لا يبقى بعده في القلب أثر من رحمة أو عفو.

ودخل سيدنا ﷺ مكة فاتحاً، مكة التي أخرج منها بالأمس، حين بذلت قريش في دمه الغالي والرخيص، وصاح أحد قادة النبي ﷺ:

«اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمات، هلكت بيداء قريش».

هكذا هي قواعد الحرب: «ويل للمغلوب من الغالب» لم يشذّ عن هذه القاعدة أمة ولا جيش، من أقدم العصور وحتى زمان الناس هذا، يوم النصر هو يوم الانتقام من عدوّ الأمس الذي عذّب وسلب وسجن.

وأما رسول الله ﷺ فلم يرضَ ذلك، وكان له رأي آخر، فتعالَ معي لننتقل بأرواحنا إلى تلك الساعات لنشاهد فيلماً يصف لنا ذلك الموقف المهيب، يصوره لنا من كان فيه كأنس بن مالك، ومعاوية بن قرة، وغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ:

وصل النبي ﷺ مكة وهو على ناقته، بيده لواء أبيض، وعلى رأسه عمامته

السوداء، وقد خفض رأسه حتى كادت ذقنه أن تمس ظهر راحلته، وحتى ليخيل لمن يراه أنه ساجد على ظهر الراحلة.

وأخذ ﷺ يسير بهذه الحالة، بسكينة وهدوء ميمّماً إلى المسجد الحرام، وهو يردّد قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾....

﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

يقول عبد الله بن مغفّل ﷺ: «كان ﷺ يقرأ سورة الفتح ويرجّع (أي يترنم)».

لقد كان ﷺ مستغرقاً في حالة من الشهود لله تعالى، غاب معها كل أثر لمعاني الظفر والتجبر والانتقام، فني كل ذلك، ولم يبق إلا الإحساس بالعبودية لله تعالى، هو الذي فتح ذلك الفتح المبين، وهو الذي غفر ما تقدم من الذنوب وما تأخر، وهو الذي هدى وهو الذي نصر.

فلم يتمالك ﷺ إلا أن وضع جبهته لله مظهراً لضعفه، متذللاً له سبحانه ومستسلماً لعظمته.

ووصل ﷺ إلى المسجد الحرام، فطاف فيه، ونكّس ما كان فيه من الأصنام ثم دخل الكعبة ليصلي، وأغلق الباب دونه.

وتسارع الناس، واصطفوا أمام الباب صفوفاً، وساد الصمت، وترقب أهل مكة خروج الفاتح من جوف الكعبة بالحكم الذي سيقضي به عليهم، فخرج عليهم

رسول الله ﷺ ووقف على باب الكعبة، ونظر في تلك الجموع المتلهفة لمعرفة مصيرها، ثم قال:

ما تظنون أني فاعل بكم؟

وجالت في خواطر القوم كل الاحتمالات.

ظنوا أنه سيقتلهم كما أرادوا أن يقتلوه، أو أنه سيحبسهم حتى يموتوا جوعاً وعطشاً كما فعلوا معه ومع أصحابه عندما حاصروهم في الشِّعب.

ظنوا أنه سيلقيهم عراة على رمال الهواجر، ويحطم أضلاعهم بالصخور الكبار، كما فعلوا مع المستضعفين من أتباعه.

ظنوا أنه سيطؤهم بأقدامه كما فعلوا معه وهو يصلي، أو أنه سيبصق في وجوههم كما فعلوا معه وهو يبلغ دعوته.

ظنوا كل ظن سوء، وفكّروا بكل جريمة فعلوها معه طيلة عشرين عاماً من الإذاية والمكائد.

ولكنهم لم يتخيّلوا قطّ أن رسول الله ﷺ سيجيبهم بما أجاب به يوسف إخوته.

قال لهم ﷺ: «﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

لم يكتف ﷺ بالصفح، بل أحلَّهم حتى من اللوم، وتفضل عليهم بالدعاء بأن يغفر الله لهم إساءتهم في حق رسوله.

ثم لم يقل لهم اذهبوا وأنتم طلقاء، بل قال: وأنتم الطلقاء (بالتعريف) وكأنه زيادة على العفو يقول لهم: إن كانت الحرية لأحد فهي لكم، فإنكم

أهلها، وأنتم أولى الناس بها، فهي فيكم أصيلة حتى بها عرفتم فلا ينبغي أن يلحق بكم أسر ولا قيد ولا عار ولا شَنَار.

ولا ينبغي أن يظن ظانّ أن رسول الله ﷺ قد أخذته رأفة بعشيرته، فإنّ حاله كان كذلك مع كل الناس.

يروي زيد بن سَعْنَة - وكان واحداً من أحبار اليهود الذين هداهم الله للإسلام - يقول: لم يبقَ من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين، لم أُخْبَرْهما منه: سبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكنت أتلطف له ﷺ لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

فاشتريت منه تمراً، وأعطيته الثمن على أن يعطيني التمر بعد مدة معلومة، فلما كان قبل مجيء الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيت محمداً ﷺ فأخذته بمجامع قميصه ورداؤه على عنقه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت:

ألا تقضينّ يا محمد حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مُطل (أي تماطلون) فارتاع عمر لقول زيد واشتد غضبه وهمّ بضربه بالسيف.

يقول زيد: ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكون وتُؤَدَة وتبسم، ثم قال: «أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التِّباعة (أي المطالبة)، اذهب يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما رُعته»[1].

إن المرء ليكاد يشكك في صحة هذه المرويات، لما يرى فيها من السمر

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي.

الأخلاقي والأدب العالي، ويحسب أن هذه الأخبار إنما صاغتها أوهام المحبين له ﷺ ومبالغاتهم.

والحق أن هذا الخُلُق الرفيع، الذي يهتز له القارىء ويتعجب، هو نفسه الذي اهتز له زيد بن سَعْنَة نفسه، اهتز له اهتزازاً شديداً، جعله يخلع ثوب الكهانة اليهودية، ويدخل في الإسلام هو وسائر أهل بيته، والمرء لا يغير دينه ويتحول من حبر يهودي إلى صحابي إلا بموقف كهذا الذي يعجب منه القارئ.

وهذا الخلق الرفيع هو نفسه الذي اهتز له صفوان بن أمية من أئمة الشرك، فنسي عداوة الأمس في موقف واحد من هذه المواقف النبوية الفريدة، وقال للنبي ﷺ: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نفس نبي.

هذا التراجع عن العداوة المتمكنة في القلب والعقل ولسنين طويلة، وهي تتغذى وتتأجج بالحقد والوساوس، لا يمكن أن يحصل هكذا بلحظة إلا بمواقف كتلك المواقف التي لا يتوقعها المرء ولا ينتظرها لأنها تكاد تكون فوق مألوفات البشر.

الفصل الثالث

الصلاة على النبي ﷺ

رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقال: يا أبا عليّ،
لو رأيت صلاتنا على النبي ﷺ كيف تزهر بين أيدينا.

أحد أصحاب الإمام أحمد

أولاً: حكم الصلاة على النبي ﷺ:

الصلاة على النبي ﷺ واجب لا يجوز تركه، ولا يتركه ولا يغفل عنه إلا من لا خير فيه من الناس، ودليل ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

يقول القاضي عياض رحمه الله:

«اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء الأمر على الوجوب وأجمعوا عليه»[2].

ثانياً: وهل تجب الصلاة عليه كلما ذُكِر ﷺ؟

ذهب بعض العلماء أنها تجب لمرة واحدة في كل مجلس يذكر فيه، حتى لو تكرر ذكره في ذلك المجلس لأكثر من مرة.

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٥٦).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ص ٤٢٢.

وذهب آخرون إلى أن الصلاة على النبي ﷺ تجب كلما ذكر، مهما كان عدد المرات التي يذكر فيها اسمه الشريف، واستدلوا لذلك بما يلي:

قوله ﷺ: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليّ»[١].

وقوله ﷺ: «رَغِم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علي»[٢].

وعن مالك بن الحوَيرِث أن النبي ﷺ صَعِد المنبر، فلما رقي عَتَبَة، قال: «آمين»، ثم رقي أخرى فقال: «آمين»، ثم رقي عَتَبَة ثالثة، فقال: آمين، ثم قال: أتاني جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، من أدرك رمضان فلم يُغْفر له فأبعده الله، فقلت: «آمين»، قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله، فقلت: «آمين»، قال: ومن ذُكِرتَ عنده فلم يُصل عليك فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين[٣].

ولا شك أن الدعاء بالإبعاد، وبإرغام الأنف لمن ترك الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره، ووصفه بالبخل، لا شك أن فيه وعيداً شديداً، لا تطيب النفس معه بالقول بعدم وجوب الصلاة عليه عند ذكره، بل لا تطيب بترك الصلاة عليه حتى ولو لم يُذْكر فكيف إذا ذُكِر، وخصوصاً أن للصلاة على النبي ﷺ آثاراً وأنواراً لا ينبغي أن يزهد فيها عبد موفق، وذلك كما سيظهر في الفقرات التالية.

---

(١) رواه النسائي والترمذي وابن حبان.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه ابن حبان.

ثالثاً: الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً:

يقول الشيخ الفاسي[١] في شرحه على دلائل الخيرات:

«وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي ﷺ، فإنها مقبولة غير مردودة».

وقال:

«الصلاة على النبي ﷺ مجابة على القطع، فإذا اقترن بها السؤال شفعت بفضل الله تعالى فقُبِل، وهذا المعنى مذكور عن بعض السلف»[٢].

وذكر ابن عابدين ـ رحمه الله ـ أن معنى قَبولها وعدم ردّها هو أن الله لمّا كان لم يزل مصلياً على نبيه كما أخبر عن نفسه سبحانه، فاختلفت الصلاة على النبي ﷺ بذلك عن بقية أنواع الدعاء الذي قد يقبله الله وقد يرده.

إذ أخبرنا الله أن مقتضى الدعاء في الصلاة على النبي ﷺ واقع بالفعل، كما يظهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[٣].

رابعاً: الأحاديث الواردة في فضائل الصلاة على النبي ﷺ:

وردت في فضائل الصلاة على النبي ﷺ أحاديث كثيرة جداً، تفيد بمجموعها حصول فوائد وفضائل للمصلي على النبي لا يمكن حصرها، وستعرض هنا لبعض تلك الأحاديث الشريفة:

---

(١) هو الشيخ الإمام أبو عيسى محمد المهدي الفاسي القَصْريّ، مؤرخ ومحدّث، ولد بالمغرب سنة ١٠٣٣ كان رحمه الله لا يأكل إلا من عمل يده بالنسخ، ولا ينسخ لمن في ماله شبهة. توفي بفاس ١١٠٩هـ.

(٢) مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات للفاسي: ص ١٦٥.

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٥٢٠.

١ ـ عن أبي طلحة الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه الشريف فقلنا: يا رسول الله، إنا نرى السرور في وجهك، فقال ﷺ: «إنه أتاني المَلَك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، فقال ﷺ: بلى»(١).

وأي شيء أعظم من أن يصلي الرب الخالق سبحانه، عليك أيها العبد؟ وإن أردت أن تعلم أي خير يحصل لك بصلاة ربك عليك، فاسمعه سبحانه يقول لك:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(٢).

ليخرجكم من الظلمات، هكذا... مطلقة، ظلمات الذنوب والمعاصي، ظلمات القسوة، ظلمات الضيق، ظلمات الأمراض والأسقام...

أفلا تريد أن تخرج من ذلك كله إلى نور وسرور وحبور وحضور؟ فَصَلِّ عليه.

٢ ـ وعن أنس بن مالك ﷺ خادم النبي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ بلغتني صلاته، وصليت عليه وكُتِبَ له سوى ذلك عشرُ حَسَنَات»(٣)؛ فإذا صليتَ على النبي ﷺ بلغت صلاتك النبي ﷺ، وقيل له فلان الفلاني (باسمك الخاص) من أمتك يصلي عليك، فيرد عليك سيدنا رسول الله ﷺ ويقول: اللهم صلِّ على فلان.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) سورة الأحزاب، آية (٤٣).

(٣) رواه الطبراني.

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذُكِرْتَ ـ ثَمَّ ـ على ما فيك من عِوَج

أيُّ شرف، أي لذّة، أي عطاء، أن يصلي رسول الله عليك باسمك في الحضرة الإلهية، فتستفيد سكينة للقلب، ومغفرة للذنب، وارتقاء لمقام القرب أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[1].

فصلاته ترجع على من يصلي عليه بالسَّكَن والنعيم، ولذلك كان أصحاب النبي ﷺ يحرصون كل الحرص على أن يصلي رسول الله ﷺ على أحدهم ويسألونه ذلك ﷺ.

يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيقول:

«أتانا رسول الله ﷺ فقالت له امرأتي، يا رسول الله، صلِّ عليّ وعلى زوجي، فقال ﷺ صلى الله عليك وعلى زوجك»[2].

وفي الصحيحين أن ابن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة (أي ليعطيها للفقراء) قال داعياً للذي أتى بالصدقة: اللهم صلِّ على آل فلان، فأتاه أبي بصدقة فقال: اللهم صلِّ على آل ابن أبي أوفى[3].

٣ ـ وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي (أي فكم أجعل من دعائي صلاة عليك)، قال: «ما شئت». قلت: الربع؟

قال ﷺ: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

---

(١) سورة التوبة، آية (١٠٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

قلت: النصف؟

قال ﷺ: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

قال أبي: أجعل لك صلاتي كلها.

فقال ﷺ: «إذن تُكفى همَّك، ويُغفَر ذنبُك»[1].

وفي رواية أخرى للحديث قال ﷺ: «إذن يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمَّك من دنياك وآخرتك».

ولا تعجب بعد هذا إن وجدت بعض الصالحين والمحبين له ﷺ يقتصرون في دعائهم على الصلاة عليه ﷺ، فلا يسأل اللهَ شيئاً إلا أن يصلي على نبيه ﷺ، وما عليه ألاَّ يفعل وقد ضمن الله له بذلك أن يكفى هموم الدنيا والآخرة، وماذا يبتغي العبد من دعائه مهما كان جامعاً إلا هذا المطلب؟

خامساً: أقوال العارفين في الصلاة على النبي ﷺ:

يجمع أهل العلم والعرفان من أولياء الله وخاصته، على أن الصلاة على رسول الله ﷺ هي طريق من أقرب الطرق وأسرعها للوصول إلى الله، وللارتقاء في معارج القرب منه، والتعرف عليه سبحانه، ويذكرون للصلاة على رسول الله ﷺ آثاراً وأمداداً لا يحيط بها الحصر، ولذلك نراهم يبالغون في الاعتناء بها، والحضِّ عليها، ويأخذون أنفسهم بها على العزائم، ويشددون على مريديهم العهود والمواثيق في عدم التقصير فيها، أو التغافل عنها.

---

(١) رواه الترمذي.

يقول الإمام الشعراني[١] رحمه الله:

«أُخِذَ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نُكثر من الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ ليلاً ونهاراً، ونذكر لإخواننا ما في ذلك من الأجر والثواب ونرغّبهم فيها كل الترغيب، إظهاراً لمحبته ﷺ. . . .

فمن واظب على ما ذكرناه كان له أجر عظيم، وهو من أولى ما يتقرب به إليه وما في الوجود من جعل الله تعالى له الحل والربط، دنيا وآخرة مثله ﷺ، فمن خدمه على الصدق والمحبة والصفاء، دانت له رقاب الجبابرة، وأكرمه جميع المؤمنين، كما ترى فيمن كان مقرباً عند ملوك الدنيا، ومن خدم السيد خدمته العبيد.

واعلم يا أخي، أن طريق الوصول إلى حضرة الله من طريق الصلاة على النبي ﷺ من أقرب الطرق، فمن لم يخدمه الخدمة الخاصة به، وطلب دخول حضرة الله، فقد رام المحال، ولا يمكنّه حُجّاب الحضرة أن يدخل، وذلك لجهله بالأدب مع الله تعالى»[٢].

---

(١) الإمام الشعراني هو عبد الوهاب بن أحمد الشعراوي أو الشعراني، الإمام العابد الزاهد الفقيه المحدّث، المربّي المسلّك، ولد بقرية أبي شعرة من أعمال المنوفية بمصر سنة ٨٩٨ هـ، كان مواظباً على السنة مجانباً للبدعة مبالغاً في الورع، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على النبي ﷺ فيستمر جالساً إلى الفجر لا يفتر ولا ينعس، وله مصنفات مشهورة في الحديث والفقه.
كان إذا مشى في الطرقات تتدلق عليه الخلائق، حتى اليهود والنصارى، وكان رضي الله عنه مجاب الدعوة، متخلقاً بأخلاق النبوة.
من كلامه: «دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف فإنه قد يخطئ».
توفي رحمه الله في القاهرة ودفن بباب الشعرية سنة (٩٧٣ هـ). انظر شذرات الذهب ٨/ ٣٧٢.
(٢) لواقح الأنوار القدسية للشعراني: ص ٢٠٤.

ويذكر الربّانيون من أولياء الله أن الصلاة على النبي ﷺ من أفضل الوسائل في تربية النفس وتزكيتها.

والتزكية: هي تخليص النفس من أوصافها الذميمة، كالحقد والحسد والرياء والنفاق وحبّ الشهوات، وغير ذلك، مما يوجب قسوة القلب، وضعف الهمة، وسوء الحال، وقبح الخاتمة، وتحليتها بالأوصاف الحسنة التي تثمر تنوير القلب وتنقية السريرة، ودوام الذكر، وطرد الغفلات.

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

وتزكية النفس هي مهمة الأنبياء والرسل.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[2].

وبعد الأنبياء، تؤول هذه المهمة في التربية والإرشاد إلى ورثتهم من أهل العلم والعمل من الربانيين، ومن عَسُر عليه الوصول إلى أمثال هؤلاء المربين الكاملين المكمّلين، والمأذونين من حضرة الرسول الأعظم ﷺ في إرشاد الخلق فعند ذاك، لا شيء أنفع في التربية والتزكية من الصلاة على رسول الله ﷺ.

يقول السيد أحمد دحلان[3]:

«وبالجملة فالصلاة على النبي ﷺ نافعة بأي صيغة كانت، ولا شيء أنفع

---

(١) سورة الشمس، آية (٨،٩).

(٢) سورة الجمعة، آية (٢).

(٣) هو السيد أحمد بن السيد زيني دحلان، فريد عصره وأوانه، وكبير علماء الحجاز في زمانه ومفتي الشافعية في البلد الحرام، كان معظّماً لدى العامة والخاصة، محبوباً لديهم، لوافر علمه، وطيب معشره، وحسن سيرته، توفي بمكة سنة (١٣٠٤ هـ) ودفن بالمعلاة.
انظر حلية البشر للبيطار: ١/ ١٨١.

لتنوير القلوب، ووصول المريدين إلى الله تعالى منها، فإنَّ المواظب على الصلاة على النبي ﷺ يحصل له أنوار كثيرة، وببركتها يتصل بالنبي ﷺ، أو يجتمع بمن يوصله إليه، خصوصاً إذا كان مع الاستقامة، وخصوصاً في آخر الزمان، عند قلة المرشدين، والتباس الأمور على الناس.

فمن أراد هداية الخلق وإرشادهم، فعليه أن يأمر الناس عوامهم وخواصهم بالاستغفار والصلاة على النبي ﷺ»[1].

وقال في موضع آخر:

«قال كثير من أئمة الطريق المقتدى بهم، إن الاشتغال بالصلاة على النبي ﷺ من أعظم أسباب الفتح على العبد، وإنها تقوم مقام الشيخ في التربية، وقد وصل بها إلى معرفة الله تعالى كثير من العارفين، ولم يكن لهم شيخ غير ذلك»[2].

ويقول العارف بالله الشيخ أبو العباس التيجاني[3] قدس الله روحه:

«ويستغرق ما يطيقه من الأوقات في كثرة الصلاة على النبي ﷺ بالتأدب والحضور واستحضار القلب أنه جالس بين يديه ﷺ، وليداوم على ذلك، فإن من داوم على ذلك، وكان اهتمامه بالوصول إلى الله تعالى اهتمام الظمآن

---

(١) أفضل الصلوات للنبهاني: ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥.

(٣) هو الشيخ العارف بالله أحمد بن محمد التيجاني المغربي أبو العباس، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، ولد في بلدة عين ماضي بالمغرب سنة ١١٥٠ هـ وحفظ القرآن لسبع سنين وتعلم العلوم الشرعية وبرع فيها، كان كثير الصمت، كثير الحياء، متواضعاً، معظماً عند الناس، توفي سنة ١٢٣٠ هـ وقبره في مدينة فاس معروف وأتباعه وخلفاؤه لهم انتشار واسع بين مسلمي أفريقيا. انظر حلية البشر للبيطار ٣/ ٧١.

بالماء أخذ الله بيده وجذبه إليه، إما أن يقبض له نبيه ﷺ ليربيه، وإما أن يفتح له باب الوصول ورفع الحجب بسبب ملازمته للصلاة على حبيبه ﷺ فإنها أعظم الوسائل إلى الله تعالى في الوصول إليه، وما لازمها أحد قطّ في طلب الوصول إلى الله تعالى فخاب»[1].

ويقول العارف بالله أبو المواهب الشاذلي[2] قدس الله روحه:

«الله عباد يتولى تربيتهم النبي ﷺ بنفسه من غير واسطة بكثرة صلاتهم عليه»[3].

---

(١) جواهر المعاني.

(٢) هو أبو عبد الله محمد أبو المواهب التونسي الشاذلي الوفائي، كان من الظرفاء الأجلاء، والأحبار العلماء ألّف الكتب الفائقة اللدنيّة، ومنها كتاب «القانون» في علوم الطائفة، وهو كتاب بديع يشهد لصاحبه بالذوق الكامل والمعرفة العالية. كان كثير البكاء، قريب الخشية، قل أن يسمعه أحد يبكي إلا ويبكي معه.

وكان كثير الرؤيا لرسول الله ﷺ، ونقل الشعراني عنه قوله: رأيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، لا تدعني، فقال ﷺ: «لا ندعك حتى ترد على الكوثر وتشرب منه، لأنك تقرأ سورة الكوثر وتصلي عليّ» وقال: رأيت رسول الله ﷺ تفبّل فمي وقال: أقبّل هذا الفم الذي يصلي عليّ ألفاً بالليل وألفاً بالنهار.

وقال: استعجلت مرة في صلاتي عليه ﷺ لإكمال وردي وكان ألفاً، فرأيت رسول الله ﷺ يقول لي: أما علمت أن العجلة من الشيطان.

وجلس مجلساً فيه غيبة فَفَتَرت رؤيته لرسول الله ﷺ، ثم رآه فقال له ﷺ: أنا لا أجتمع بمن يجلس مجالس الغيبة مع الناس ولا يقوم منها.

وقرأ أوراده مرة مع تقصير في قراءة القرآن، فرأى رسول الله ﷺ يقول له: يا محمد، ما هذه الغفلة؟ وما هذه الرقدة؟ وما هذا الإعراض؟ مالك تركت تلاوة القرآن، وما هذه الوريدات بجانب تلاوة القرآن؟ لا تفعل، بل اتلُ كل يوم ولو حزبين. فما ترك القراءة بعدها أبداً.

ومراثيه لرسول الله ﷺ كما نقلها عنه الشعراني كثيرة، وهي تبين لك كيف تكون تربية رسول الله ﷺ لمن يكثر الصلاة عليه.

توفي رحمه الله بمصر قريباً من ٨٥٠ هـ ودفن بمدافن الشاذلية هناك (انظر الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٣٥).

(٣) الفتح المبين من رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم للفوتي: ص ٥٢٨.

وكان الشيخ أبو المواهب واحداً من هؤلاء، كما يظهر في ترجمته، فهو - رضي الله عنه - يتكلم عن ذوق ومعرفة.

وللشيخ عبد العزيز بن علي الزمزمي كلام جميل وجامع في أثر الصلاة على النبي ﷺ في السلوك والتربية يقول فيه:

«الصلاة على سيد السادات من أهم المهمات في جميع الأوقات... ويستوي في الاحتياج إليها الطالب والسالك والمريد والعارف، فالطالب تربّيه، والعارف تبقيه بعدما تغنيه.

وإن شئت قلت: الطالب تعينه على السلوك، والمريد ترفعه عن الشكوك، والعارف تقول له: ها أنت وربك.

وإن شئت قلت: الطالب تحمله، والمريد تكمّله، والعارف تلوّنه.

وإن شئت قلت: الطالب تحبّب إليه الأعمال، والمريد تكسبه الأحوال، والعارف تثبته في مقامات الرجال.

وإن شئت قلت: الطالب تُكسبه استنارة، والمريد تمدّه بالعبارة، والعارف تغنيه عن الإشارة.

وإن شئت قلت: الطالب يقوى بها إيقانه، والمريد يكثر منها إيمانه، والعارف يزداد منها عيانه.

وإن شئت قلت: الطالب تزداد بها أنواره، والمريد تفيض منها أسراره، والعارف يستوي لربه ليله ونهاره.

وإن شئت قلت: الطالب تحبّب إليه الأعمال، والمريد تصحّح لديه الأحوال، والعارف تؤيّده عند الوصال.

وإن شئت قلت: الطالب تزيده تشوّقاً، والمريد تطربه تملقاً، والعارف يستمد منها تحققاً.

وإن شئت قلت: الطالب تُكسبه الأنوار، والمريد تكشف له الأستار، والعارف تلزمه الاضطرار ولا يكون له مع غير الله قرار.

وإن شئت قلت: الطالب تشوّقه بالمنامات، والمريد تحقّقه بالكرامات، والعارف تحوّله في المقامات»[1].

سادساً: أثر الصلاة على النبي ﷺ في تحصيل محبته:

كل ما سبق ذكره من بركات الصلاة على النبي ﷺ هو مما يفيد القلوب حباً وتعشقاً لحضرة النبي الأعظم ﷺ، ولكننا هنا سنذكر أقوال أهل القلوب والمعرفة في تأثير الصلاة على النبي ﷺ في تحصيل المحبة خصوصاً، إذ هي أهم آثار وبركات الصلاة عليه ﷺ، لأن ثمرة المحبة هي المتابعة والخضوع الكامل للمحبوب ﷺ، والاتحاد الكامل مع مراداته وصفاته ﷺ وهو آخر ما يمكن أن يبلغه مسلم في مراتب الكمال، إذ ليس بعد تلك الرتبة إلا النبوة.

يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى:

«إن الصلاة على النبي ﷺ سبب لدوام محبة المصلي للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه، ومعانيه الجالبة لحبه، تضاعف حبه له، وتزايد شوقه»[2].

---

(١) رسالة التعلق بجنابه ﷺ: ص ٦.

(٢) جلاء الأفهام لابن القيم: ص ٤٤٧.

ويقول الشيخ محمد الغمري رحمه الله[١]:

«والإكثار من الصلاة عليه ﷺ تثمر تمكُّنَ محبته من القلب، ولما علمنا أنه لا يُتَوصل لاكتساب اتباع أفعاله وأخلاقه ﷺ إلا بعد شدة الاعتناء به، ولا يتوصل لشدة الاعتناء به إلا بالمبالغة في حبه، ولا يتوصل للمبالغة في حبه إلا بكثرة الصلاة عليه ﷺ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فلذلك بدأ السالك بالصلاة عليه ﷺ، فإنَّ لها في تنوير الباطن وتزكية النفس عجائب يجدها السالك ذوقاً»[٢].

ويقول الشيخ محمد السمَّان[٣] رحمه الله:

«وكثرة الصلاة عليه ﷺ تفيد بالصورة الروحانية تعشقاً يوجب زيادة المحبة، ودوام الذكر له ﷺ، ولأجل ذلك يقرب إليه ويكون عنده، ويحشر معه»[٤].

---

(١) الشيخ محمد الغمري، من كبار العلماء العاملين، كان زاهداً متقشفاً، وعارفاً محققاً، معروفاً بالكرامات، ولما وقع الغلاء في أحد السنين أخرج كل ما في مخزنه من قمح فباعه للناس، وصار يشتري مثلهم وقال: إن الله يكره الرجل المتميِّز عن أخيه. توفي سنة ٨٥٠ هـ تقريباً، ودفن في جامع المحلة بمصر.
انظر الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٧٣.

(٢) رسالة التعلق بجنابه نقلاً عن منح المنة للشيخ الغمري: ص ١٠.

(٣) هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المدني الشافعي الشهير بالسمَّان، الشيخ الصالح، والعالم المرشد المسلِّك، والمربي المقدَّم، ولد بالمدينة المنورة سنة (١١٣٠ هـ) ونشأ بها وأخذ عن علمائها، وقام على وظائف الأوراد والأذكار والإرشاد والتربية في داره التي كان يسكنها وهي دار سيدنا أبي بكر الصديق، وكانت تعرف بالمدرسة السنجارية، كان مشهوراً في الآفاق بتعبده وصلاحه وحبه لرسول الله ﷺ، وأخذ عنه الجمع الغفير من أهل المدينة المنورة، توفي سنة (١٨٩ هـ) ودفن بالبقيع.

(٤) انظر سلك الدرر للمرادي: ٤/ ٧٢.

سابعاً: هل هناك صيغة خاصة للصلاة على النبي ﷺ:

الصلاة على النبي ﷺ نافعة بأي صيغة كانت، وما من شك أن المأثور عن النبي ﷺ في ذلك أفضل من سواه.

وتقديم الصيغ المأثورة عن النبي ﷺ لا يقلل من شأن صيغ أخرى منقولة عن بعض العارفين والمحبين، فإنَّ الظنَّ بهؤلاء أنهم لم يخترعوا تلك الصيغ اختراعاً من عند أنفسهم ليضاهئوا بها المأثور عن سيدهم رسول الله ﷺ، بل متى صحَّت نسبة تلك الصيغ إلى من صحَّت ولايته وصدقت محبته، فإنها بلا شك مُتَلَقَاة بالإلهام أو الرؤيا الصادقة والإلقاء القلبي الذي لا يكاد يخطئ عند أولياء الله.

وقد كان يقع مثل ذلك لبعض الصحابة على عهد رسول الله ﷺ فيُلهَمون صيغة من صيغ الذكر يسمعها رسول الله ﷺ فيقرّها ويثني عليها.

وبالجملة فإن كلَّ صيغة من صيغ الصلاة على النبي ﷺ لها أسرارها وأنوارها وبركاتها الخاصة، والحق أن الأمر الأهم في تحصيل النفع من الصلاة على النبي ﷺ، لا يتعلق باختيار هذه الصيغة أو تلك، ولكنه يتعلق أول ما يتعلق بحال الإنسان عند الصلاة على النبي ﷺ، فإنَّ للصلاة على النبي آداباً وشروطاً، ويعظم النفع ويزداد الخير بقدر ما يحصِّل الإنسان من تلك الآداب والشروط حال الصلاة عليه ﷺ، فما هي تلك الآداب؟!!

ثامناً: آداب الصلاة على النبي ﷺ

الآداب الظاهرة:

وهي الآداب التي ينبغي أن يراعيها المصلي في البدن والمكان، وذلك بأن يكون متوضئاً، متطيِّباً، مستقبلاً القبلة، وأن يترسَّل في الصلاة على النبي ﷺ ولا يتعجَّل في الكلمات، وليتذوق ألفاظ الصلاة عليه ﷺ وليتأمل فيها، وشأن الصلاة عليه ﷺ كشأن سائر الأذكار في مراعاة تلك الآداب.

الآداب الباطنة:

وهي الآداب التي ينبغي أن يراعيها المصلي في روحه وقلبه، وأهمها ما يلي:

١ ـ الحضور القلبي:

الحضور القلبي هو أهم وأعظم آداب الصلاة على النبي ﷺ، وعليه المدار الأول في حصول ثمرات الصلاة على النبي ﷺ، وعلى رأسها تحصيل محبته ﷺ.

وكثير منا يستسهل الصلاة على النبي ﷺ بتحريك اللسان وهزِّ الرأس، وقلبه هائم في أودية الدنيا، حلالها وحرامها، والقلب هو محلّ نظر الله، وهو محل الصلة والارتباط برسول الله ﷺ، وهو محلّ مجالسته ﷺ، والصلاة على النبي ﷺ كالمجالسة له ﷺ، ومهما كان المجالِس للنبي ﷺ منصرفاً بقلبه عنه ﷺ، فلا يحصل الإقبال عليه من الجناب النبوي الرفيع.

وعلى الإنسان أن يتذكر أنه لو جالس عظيماً من عظماء الدنيا، ثم إنه

انصرف بوجهه عن هذا العظيم، وصار يتأمل أثاث المجلس وجدرانه، ويقلِّب البصر في كل من يدخل المجلس وكل من يخرج، وماذا يفعل كل داخل وخارج، وكل ذلك والعظيم جالس أمامه يواجهه، فهل نتوقع أيَّ التفات من ذلك العظيم إلى هذا الإنسان المجالس، إنه بانشغاله بغيره عنه استخفَّ به وهوَّن من شأنه، وحطَّ من قدره، فاستحق بذلك الإعراض والطرد والإبعاد لجهله بآداب مجالسة الأصاغر للأكابر.

ومقام رسول الله ﷺ لا يطاوله مقام عظيم من المخلوقين، بل هو سيِّد المخلوقين بلا منازع، ومجالسته ﷺ تكون بالقلوب والأرواح، لا بالأجساد والأشباح، ولا يليق بالقلب المجالس للنبي ﷺ أن يلتفت عنه إلى مخلوق غيره، بل ينظر القلب بعين البصيرة إليه، ويتأمل في محاسنه وأنواره، وينطلق اللسان مناجياً له ﷺ بالصلاة والسلام عليه، مناجاة الحضور والمخاطبة، لا مناجاة الغفلة والغَيبة.

ويفتح المصلي عليه ﷺ أُذُن بصيرته وأذن روحه ليسمع من الحضرة النبوية جواب الصلاة والسلام عليه، فإنه ﷺ يردّ على كل من صلى وسلم عليه، وليتحول مجلس الصلاة عليه ﷺ إلى مجلس أُنس ومسامرة، تسمع فيه وتجيب، وتُسلِّم ويُسلَّم عليك، وتعرج فيه روحك إلى عالم الأرواح، وجسدك في مكانه.

٢ ـ أن يكون القصد من الصلاة عليه ﷺ هو تعظيمه ﷺ:

يذكر أهل المحبة أن أعظم الصلوات عليه ﷺ فائدة في استجلاب المحبة هي الصلوات التي يكون الحامل عليها، هو إجلاله ﷺ وتعظيم قدره ﷺ، ولا ينبغي للإنسان ـ إذ يصلي على النبي ﷺ ـ أن يُخطر بباله أن النبي ﷺ

مفتقر إلى صلاته عليه، أو أنه بصلاته عليه يزيد من شرفه وقدره ومنزلته، بل إنَّ من يزداد قدراً وشرفاً هو المصلِّي على النبي ﷺ، لا النبي ﷺ، وإن من يفتقر إلى تلك الصلاة هو المصلِّي على النبي ﷺ لا النبي ﷺ، فإن الفقير يُهدي إلى الملك، لا لأن الملك مفتقر إلى هديته، ولكن لأن الفقير يؤمِّل بهديته تلك نوالاً وعطفاً والتفاتاً من الملك.

يقول العارف بالله الشيخ أبو العباس التيجاني رحمه الله:

«واعلم أنه ﷺ ليست له حاجة إلى صلاة المصلي عليه ﷺ، ولا شُرِعت لهم ليحصل له النفع بها ﷺ، وإنما أمر الله العباد بالصلاة عليه ﷺ ليعرفوا علو مقداره عنده وعلوَّ اصطفائه على جميع خلقه، وليعلمهم أنه لا يقبل العمل من عامل إلا بالتوسل به فمن طلب القرب من الله تعالى والتوجه إليه دون التوسل به معرضاً عن كريم جنابه كان مستوجباً من الله غاية السخط والغضب وغاية اللعن والطرد والبعد»[1].

يقول العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله[2]:

«والصلاة على رسول الله ﷺ وسيلة للقرب منه ﷺ كما جعلت هدايا الفقراء إلى الأمراء وسائل ليتقربوا إليهم وليعود نفعها عليهم، إذ هو ﷺ بعد

---

(١) رسالة التعلق بجنابه للنابلسي ص ١٨.

(٢) هو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري، العارف الكامل، والعالم العامل، صاحب الكرامات، قال فيه المرادي: هو أعظم من ترجمت له، علماً وولاية، وزهداً وشهرة ودراية. ولد في دمشق عام (١٠٥٠ هـ)، كان متضلعاً من العلوم، وله مؤلفات تزيد على المائة في كل فروع العلم، وكان - رضي الله عنه - سليم الصدر، عفَّ اللسان، أعزه الله في آخر عمره بما لا يوصف، وساق إليه قلوب العامة والخاصة، توفي سنة (١١٤٣ هـ) في دمشق ودفن في الصالحية وقبره هناك معروف بجوار مسجد سمي باسمه.
انظر سلك الدرر: ٢٦/٤.

صلاة الله عليه، لا يحتاج إلى صلاة أحد، وإنما شرعت تعبداً لله وقربة إليه، ووسائل للتقرب إلى جنابه المنيع ومقامه الرفيع ﷺ»[1].

ويحصل للمصلي هذا الإحساس بالتعظيم له ﷺ بأن يستحضر حال الصلاة عليه ﷺ ما خصه الله به من الكمالات، وما أجراه على يديه من الخيرات لكل المخلوقات، وكيف جعله رحمة مهداة، وما جعله الله في يديه من الحلّ والربط في الدنيا والآخرة، فالله يصلي عليه، والملائكة تصلي عليه، واستغفاره للمذنبين حياً وميتاً ماحق لذنوبهم، وشفاعته للخاطئين منجّية لهم من أهوال الحشر والحساب والصراط.

دعوات الأنبياء المجابة قد دَعَوا بها في حياتهم، وادّخرها هو ﷺ شفاعةً لأمته يوم القيامة.

يتلقى الأتباع يوم القيامة بقوله: ألا هلم ألا هلم، ويسقيهم بيديه في يوم الظمأ الأكبر، ودعاؤه يومئذ: أمتي أمتي، يا رب سلّم، يا رب سلّم..

فالمصلي عليه ﷺ إذا استحضر هذه المعاني وغيرها مما ذكر في هذا الكتاب، أو لم يذكر مما لا تتسع لها الكتب، فلا بد أن تستولي عليه الهيبة له ﷺ والتعظيم لقدره والشوق لرؤيته، فإذا شرع بالصلاة عليه بالكيفية المذكورة، وقال: الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله، أو بأي صيغة أخرى، فسيجد أن قلبه بدأ يرقص طرباً، وستُدَاخِله رِقَّة وخِفَّة لا تحصل إلا بمناجاة الحبيب، ولا تحصل إلا في مجالس العاشقين.

فتلك هي أول طريق المحبة قد بدأ طيّها..

قد عرفت فالزم..

---

(١) شرح الصلاة المشيشية للنابلسي نقلاً من جواهر البحار ١/٣١٨.

٣ ـ استحضار صورته الشريفة ﷺ حال الصلاة عليه ﷺ:

يقول سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما:

«سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصّافاً ـ عن حِلْية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به»[١].

فسيدنا الحسن سِبْط النبي ﷺ كان يتعلق بصورة جده المصطفى ﷺ، وكذلك كان يفعل صغار الصحابة والتابعين، فإنهم كانوا يكثرون السؤال عن صفة رسول الله ﷺ ودقائق أحواله، كما يحرص الواحد منا على الحصول على تسجيل صوتي أو تلفزيوني لشخص يحبه ليملأ منه سمعه وعينه.

ويقول الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله:

«ولهذا كان ﷺ يذكر لأصحابه أوصاف الرسل قبله، ويقرب إليهم ذلك بأشباههم حتى إنهم يصيرون بحال كأنهم قد رأوهم، وذلك أقرب سبيل للتعرف بهم وأقرب طريق للتحبب إليهم»[٢].

فتخيل الصورة أفعل وأبلغ في التواصل مع صاحب الصورة.

ولأحباب الله ـ الذين عُجنوا بحب النبي ﷺ عجناً ـ كلام في حال الإنسان عند الصلاة على النبي ﷺ، ومن ذلك:

يقول العارف بالله الإمام الشعراني:

«القطب الذي يدور عليه السلوك في الطريقة المحمدية عندنا، هو الإكثار من الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ مع كون الذاكر على أحسن الحالات

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) سيدنا محمد رسول الله ﷺ: ص ١٢.

وأكملها، باستحضار معاني الذكر والإنصات إليه بقدر الاستطاعة، وكذا استحضار صورته الكريمة ﷺ في باطنه واعتقاد أنه جالس بين يديه يستمد منه، فإن قدر على استحضار صورته ﷺ الذاتية الواردة في الأحاديث المروية عنه ﷺ فذلك أكمل وأبلغ، وإن لم يقدر فليستحضر أنه جالس بين يدي صورة نورانية على ثياب من نور في غاية ما يكون من الجلال والجمال ونعوت الكمال، يداوم على ذلك حتى يشرق في قلبه نور الصلاة عليه ﷺ وتصير تنطبع الصورة الكريمة في ذهنه كلما تأمل في ذلك وتفكر فيه، وهذه أصعب مراتب الانطباع، ثم ينتقل منه إلى انطباع صورته الكريمة في عيني بصيرته وقت الصلاة عليه ﷺ، ثم ينتقل منه إلى انطباع صورته الكريمة في عيني قلبه كلما سَدَّ عينيه نوماً أو يقظة، ومن هذه الحالة ينتقل إلى رؤيته يقظة كفاحاً.

وأهل هذه الحالة قسمين:

منهم من يرى في اليقظة روحه الشريفة متشكلة في صورته الشريفة.

ومنهم من يرى حقيقة ذاته الشريفة وكأنه معه في حياته ﷺ وهؤلاء هم أهل المقام الأعلى في رؤيته ﷺ»[1].

ويقول العارف بالله التيجاني في أثناء كلامه عن الصلاة على النبي وآدابها:

«وأن يستحضر صورة المصطفى ﷺ وأنه جالس بين يديه ﷺ بهيبة ووقار وإعظام وإكبار ويستمد منه بقدر حاله ومقامه»[2].

وقد يعسر على الإنسان ـ الذي حاله كحالنا ـ ممن لم تكتحل عيونهم برؤيته ﷺ أن يمثّل صورة رسول الله ﷺ بين عينيه عند الصلاة عليه.

---

(١) الدرة الخريدة: ١/ ٢٣.

(٢) جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيدي أبي العباس التيجاني لعلي بن حرازم: ١/ ٧٤.

وفي هذه الحالة فليلزم ما يوصيه به الشيخ عبد الكريم الجيلي[١] حيث يقول:

«فإن لم تستطع أن تكون بين يديه بهذا الوصف، وكنت قد زرت يوماً ما قبره الشريف، ورأيت روضته الشريفة وقبته العالية المنيفة، فاستحضر في ذهنك قبره الشريف، وتلك الحضرة السَنِيَّة كلما ذكرته، أو صليت عليه وكن كأنك واقف عند قبره الشريف مع الإجلال والتعظيم إلى أن تشهد روحانيته ظاهرة لك»[٢].

تاسعاً: اتخاذ الورد من الصلاة على النبي ﷺ:

الوِرْد هو الوظيفة الراتبة من الأذكار التي يأخذ الإنسان بها نفسه، بحيث يرددها في كل يوم في وقت محدد ولعدد من المرات محدد.

والتزام الأوراد هو عادة الصالحين ودَيْدَنهم، وذلك لأن النبي ﷺ كان يعجبه من الأعمال ما كان ديمة وفي الحديث: «كان أحب العمل إليه ما داوم عليه العبد، وإن كان شيئاً يسيراً»[٣].

والحق أن التزام الذكر على هذه الكيفية المحددة أعون للنفس على إدامة الذكر وعدم التقصير فيه، وعدم التراخي تبعاً للمشاغل والصوارف، فالذكر إن كان وِرْداً، فإنه يصبح عادة، ولا أعني بالعادة أن الإنسان يألفه حتى يغفل عن معنى العبادة فيه، وإنما أعني أنه يصبح عادة بالمعنى السيكولوجي للكلمة،

---

(١) هو الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم، المعروف بالقطب الجيلي، وهو سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، كان -رضي الله عنه- من علماء المتصوفة، وله مؤلفات كثيرة، توفي سنة (٨٣٢هـ). انظر الأعلام للزركلي: ٤/ ٥٠.

(٢) الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قدر النبي ﷺ: ٤/ ٢٤٣.

(٣) رواه ابن حِبَّان في صحيحه.

وذلك كما يعتاد الإنسان وقتاً يستيقظ فيه ووقتاً يأكل فيه أو يقرأ أو يمارس الرياضة، فإنه بالاعتياد يسهل عليه العمل بحيث لو تركه في يوم، لشعر بالضيق وعدم الراحة.

فلو التزم الإنسان ورداً من الصلاة عليه ﷺ في كل يوم يكون بمثابة الفرض المقدّر عليه، بحيث لا يتركه أبداً، ثم يزيد ذلك نافلة من الصلاة عليه ﷺ، وذلك بحسب الطاقة والرغبة بدون التزام لذلك، فلا شك أنه على حال أفضل من أن يصلي عليه ﷺ يوماً ويترك ذلك يوماً.

هذا، وربما بلغت أوراد بعض المحبين من الصلاة على النبي ﷺ أعداداً هائلة.

يقول الإمام الشعراني:

«وكانت هذه (يعني اتخاذ ورد من الصلاة على النبي ﷺ) طريقة شيخنا وقدوتنا إلى الله نور الدين الشَّوني[1]، وكذلك طريقة الشيخ العارف بالله

---

(١) هو الشيخ نور الدين علي بن عبد الله الشَّوني الشافعي، الشيخ المجمع على جلالته وصلاحه، ولد في بلدة شوني من نواحي طنطا، وهو مؤسس مجالس الصلاة على النبي ﷺ، بدأ ذلك في مقام السيد أحمد البدوي، ثم انتقل به إلى الجامع الأزهر ولزم المجلس قريباً من ثلاثين عاماً إلى أن توفاه الله، وعنه تفرعت مجالس الصلاة على النبي ﷺ في الشام ومصر والمغرب، يروي عنه تلميذه الشعراني قوله: منذ كنت صغيراً أرعى البهائم وأنا أحب الصلاة على رسول الله ﷺ، لكنت أدفع غذائي للصغار وأقول: كلوه وصلوا على رسول الله ﷺ، فكنا نقطع غالب النهار في الصلاة عليه ﷺ.

وذكر الشعراني أنه لما توفي ولده محمد دفنه في قبر الشيخ الشوني، فوجده طرياً كما دفنوه توفي في القاهرة سنة ٩٤٤ هـ، وقبره هناك معروف يزار.

انظر طبقات الأولياء للشعراني: ٢/ ٣٠١.

أحمد الزواوي[١]، فكان ورد الشيخ نور الدين الشوني كل يوم عَشَرَة آلاف مرة، وكان ورد الشيخ أحمد الزواوي أربعين ألف صلاة، وقال لي مرة: طريقتنا أن نكثر من الصلاة على النبي ﷺ حتى يصير يجالسنا يقظة»[٢].

وقد يعجب المرء من هذه الأعداد الهائلة من الصلوات التي يلتزم بها هؤلاء المحبون، إذ كيف يَحْبِسون أنفسهم على هذه الأوراد التي يَكِلُّ لها اللسان ليوم واحد، فكيف بها وهي تفعل كل يوم مدى الحياة.

والجواب أن صلاة هؤلاء على النبي ﷺ هي مجالس أُنس ووصال ومنادمة مع سيد المخلوقات، وليست كما يتخيل الإنسان ببادي الرأي، من أنها مجرد تحريك للسان بنفس العبارة لآلاف من المرات، فإن الأمر لو كان كذلك تعلاً، لما أطاقه إنسان لأيام فكيف يطيقه كل عمره.

إن الخاطب إذا جلس لمخطوبته ينادمها ويناجيها ويتودد إليها، وهي تجيبه وتحنو عليه وتُدِلُّ عليه بمثل ذلك، فلربما أمضى في ذلك ليله ونهاره من غير أن يشعر، فضلاً عن أن يتملل لكثرة ما تكلم، وهي مثله في ذلك.

والصلاة على رسول الله ﷺ هي مناجاة لأعظم من يُحَب بعد الله، وأشرف وأكمل وأجمل خلق الله، فلا عجب إذن أن نرى ونسمع عن أمثال هؤلاء الذين حدثنا عنهم الشعراني رحمه الله.

---

(١) هو الشيخ أحمد الزواوي المصري، كان على قدم عظيم من الحب لرسول الله ﷺ وكان ورده في اليوم والليلة عشرين ألف تسبيحة، وأربعين ألف صلاة على النبي ﷺ، وله كرامات كثيرة، توفي بالقاهرة سنة (٩٢٣ هـ). انظر طبقات الأولياء: ٢/٢٥٦.

(٢) لواقح الأنوار القدسية: ص ١٦.

نسأل الله أن يذيقنا لذة تلك المناجاة ومتعتها كما أذاقها لهؤلاء العاشقين، آمين.

ملاحظة هامة:

هذا، ولا ينبغي أن يتصور المرء أن الذكر عموماً والصلاة على النبي ﷺ خصوصاً، لا تكون صحيحة ومقبولة إلا بأن يخلو المرء في صومعته مستقبل القبلة مغمض العينين، فإنّ هذا وإن كان أعون على الحضور أثناء الذكر، إلا أن المرء يستطيع ـ لو أراد ـ أن يختلي وأن يجالس المحبوب وهو في شغله وعمله، إذ المدار في الخلوة والحضور على القلب.

نيفتح عين بصره لما هو فيه من الأعمال، ويغلق عين بصيرته عما سوى المذكور، فالجسم والجوارح مع الخلق، والروح والقلب مع المحبوب.

وقد رأيت من العمال الموَفّقين من كان يعمل على مكبس حديد سحابةَ يومه، لا عمل له إلا أن يرفع في المكبس ويخفض، فألهمه الله أن يجعل مع كل مرة يرفع فيها أو يخفض، صلاة على النبي ﷺ فكان يبلغ ذلك منه كل يوم آلافاً كثيرة من المرات.

ورحم الله رابعة العدوية إذ تقول:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدِّثي ... وأبَحْت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مجالس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

نسأل الله تعالى أن يحققنا بهذه المعاني، وأن يجعلنا ممن يأنسون بالله وبرسول الله ﷺ، آمين.

الفصل الرابع

زيارة مدينة رسول الله ﷺ

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

عاشق

أشرنا فيما سبق إلى أهمية زيارة النبي في تكوين صلة معه ﷺ تعين على بثّ الحياة في صيغة الصلاة والسلام عليه، بحيث تصبح الصلاة على رسول الله ﷺ أنفع وأقوى في توليد الحب له ﷺ، وفي هذا الفصل نتابع الحديث عن زيارة مدينته ﷺ وما تعطيه تلك الزيارة لطالب المحبة والباحث عنها.

أولاً: حكم زيارة النبي ﷺ وأثرها في زيادة الحب له ﷺ:

اتفق علماء المسلمين وأئمتهم على أن زيارة رسول الله ﷺ قُرْبة من أجلّ القُرُبات إلى الله عز وجلّ، وأنها كما قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها[1].

بل قال بعض الفقهاء إنها قريبة من الوجوب لمن له سعة[2].

وفي الحديث: «من حج ولم يزرني فقد جفاني»[3].

و«من لم يزرني فقد جفاني»[4].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ص ٤٤٤.

(٢) فتح القدير لابن الهمام: ٢/٣٣٦.

(٣) رواه ابن حبّان والدارقطني.

(٤) رواه ابن السني وابن عساكر.

وعن علي كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ: «من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزرني فقد جفاني»[١].

ومعنى الجفاء في اللغة الإعراض وترك الصلة والبر، وإن كنا نتحدث عن المحبة، وعن كيفية اكتسابها وتحصيلها، فكيف يمكن أن تجتمع المحبة والجفاء لرسول الله في قلب واحد.

وما من شك أن تجربة الزيارة لمدينة رسول الله ﷺ، وقضاء أيام في كنفه ﷺ، مع ما يتخلل ذلك من تردد على بابه ﷺ، وزيارة لمشاهده ﷺ واستحضار لمواعظه وأخباره في أماكن حصولها، مع ما يتعرض له الزائر من نَفَحَات وأنوار مجاورته، وطمأنينة وبركات العيش في كَنَفِه، وتجتمع له أنوار القرب المعنوي بالقلوب والأرواح، والقرب الحسي بالأجساد والأشباح، كل ذلك ـ إن كان بآدابه وشروطه ـ من شأنه أن يُلهب نار التعلّق به ﷺ، ويُشعل أوار الحب له ﷺ.

وكل من دخل مدينته ﷺ مستحضراً ما تنبغيه زيارتها من الآداب (على ما سنذكره) لا يخفى عليه ذلك، بل يحس به إحساساً يملأ قلبه، وتظهر آثاره على وجهه، ولا يرتاب معه مرتاب بأن للمدينة أسراراً أودعها الله فيها، مصداقاً لقوله ﷺ: «إن الإيمان ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحية إلى جحرها»[٢]. ومعنى يأرز: يرجع ويلتف.

وقوله ﷺ: «إن المدينة كالكير تنفي خبثها وتنصع طيبها»[٣]. أي: إن

---

(١) رواه ابن عساكر والدارقطني.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

المدينة تخلّص الإيمان من الشوائب كما تخلص النارُ الحديدَ من شوائبه.

يقول ابن حجر رحمه الله:

«ولقد شاهدنا كثيرين تركوا الزيارة مع القدرة عليها فأورثهم الله ظلمة محسوسة ظهرت على وجوههم، وفترة عن الخيرات قطعتهم عن عبادة الله سبحانه وتعالى وشغلتهم بالدنيا إلى أن ماتوا على ذلك»[1].

ثانياً: آداب زيارة المدينة والسلام على رسول الله ﷺ:

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ مبيّناً حال الواقف بين يديه ﷺ عند السلام:

فتقوم دون القبر وِقْفَة خاضع ... متذلل في السرِّ والإعلان

فكأنه في القبر حَيّ ناطق ... فالواقفون نواكس الأذقان

مَلَكَتْهم تلك المهابة واعترت ... تلك القوائمَ كثرةُ الرَجَفَان

وتفجّرت تلك العيون بمائها ... ولطالما غاضت على الأزمان

وأتى المسلم بالسلام بهيبة ... ووقار ذي علم وذي إيمان

وأنت تنظر في صورة المسلِّم على النبي ﷺ بحسب ما يصفها ابن القيم، فتجد إنساناً يقف أمام النبي ﷺ خاضعاً متذللاً خافض الرأس غاضّ الطرف، استولت عليه مهابة النبي ﷺ فصارت تُرْعِد فرائصه، وترتجف كل خلية من خلاياه، وعينا رأسه صارتا عينين نضّاحتين بالدموع، بعد قحط طويل لم تَسِلْ فيه منهما دمعة واحدة.

كيف لا يشتعل القلب حباً لرسول الله ﷺ بعد لقاء كهذا اللقاء؟

ولكن كيف يرقى المرء بنفسه حتى يصل إلى هذه الحالة من الحضور؟

---

(١) الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم ص ٦٠.

تكلمنا عند الكلام عن الصلاة على النبي ﷺ أن الأدب باب لتحصيل الأرَب، وأن الناس كثيراً ما يتفاوتون في تحصيل الغايات من الصلاة على النبي ﷺ بحسب مدى تأدبهم بآداب الصلاة والسلام عليه ﷺ.

وما قيل هناك يقال هنا، بل يقال في كل معاملة سواء كانت مع الخالق أو المخلوقين، والقاعدة العامة أن كل ما كان أدْخَل في الأدب فهو خير ما لم يعارض الشرع.

وعلى من قصد زيارة المصطفى ﷺ في المدينة المنورة به ﷺ أن يأخذ نفسه بآداب لظاهره، وآداب لباطنه حتى يحصل له من الزيارة والسلام أطيب الثمار والغايات وعلى رأسها تحصيل محبته ﷺ ونحن نجمل هذه الآداب في الفقرات التالية:

١ ـ أول ما ينبغي أن يعالجه الإنسان من نفسه إذا بدأ بالتخطيط لزيارة النبي ﷺ هو النية، إذ على النية مدار العمل، وبالنية يكون تحصيل الخيرات ولا ينفع عمل بدونها بالغاً ما بلغ قدره.

يقول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

فيجرد المرء نيته في السفر من سائر الأغراض، ويجاهد نفسه حتى لا يجد فيها إلا الرغبة بالسلام عليه ﷺ والاقتباس من أنواره والتبرك بمسجده ومدينته ومشاهده، وكل ما له صلة به ﷺ.

---

(١) متفق عليه.

يقول بعض أهل العلم:

«عندنا وعند مشايخنا زيارة قبر سيد المرسلين ـ روحي فداه ـ من أعظم القربات وأهم المثوبات وأنجح لنيل الدرجات بل قريبة من الواجبات، وإن كان حصولها بشدّ الرحال وبذل المُهَج والأموال، وينوي وقت الارتحال زيارته عليه ألف ألف تحية وسلام، وينوي معها زيارة مسجده ﷺ وغيره من البقاع والمشاهد الشريفة، بل الأولى ما قال العلامة الهمام ابن الهُمَام أن يجرّد النية لزيارة قبره ﷺ ثم يحصل له إذا قدم، زيارة المسجد، لأن في ذلك زيادة تعظيمه وإجلاله ﷺ ويوافقه قوله ﷺ:

«من جاءني زائراً لا تُعْمِله حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون شفيعاً له يوم القيامة»[1].

وكذا نقل عن العارف السامي الملاجامي أنه أفرد الزيارة عن الحج، وهو أقرب إلى مذهب المحبين»[2].

وقال الشيخ العلامة أبو عبد الله العبدري المشهور بابن الحاج[3] في كتابه المدخل:

---

(١) رواه الدارقطني وابن السكن.

(٢) المفتّد على المهند نقلاً عن كتاب الزيارة النبوية للسيد محمد بن علوي ص ١١٢، وانظر فتح القدير ٣/ ٩٤.

(٣) هو الشيخ محمد بن محمد العبدري الفاسي المغربي الشهير بابن الحاج، الإمام العالم القدوة المشهور بالزهد والورع، والجامع بين العلم والعمل، صحب جماعة من أهل العلم وأرباب القلوب فانتفع بعلومهم وتخلّق بأخلاقهم، واقتبس من أنوارهم، وله كتاب «المدخل»، وهو كتاب عظيم النفع نبّه فيه ـ رحمه الله ـ على كثير من البدع والمخالفات لسنة النبي ﷺ. توفي في القاهرة سنة (٧٣٧ هـ) عن ثمانين عاماً. انظر الدرر الكامنة ٤/ ٣٥٥.

«فإذا خرج من مكة فلتكن نيته وعزيمته وكلّيته في زيارة النبي ﷺ وزيارة مسجده والصلاة فيه وما يتعلق بذلك كله ولا يشرك معه غيره، من الرجوع إلى مقصده أو قضاء شيء من حوائجه وما أشبه ذلك، لأنه عليه الصلاة والسلام متبوع لا تابع فهو رأس الأمر المطلوب والمقصود الأعظم»[1].

٢ ـ التوبة الصادقة مما يقارفه من الذنوب والمعاصي، بالإقلاع والندم والعزم على عدم العودة وإعادة الحقوق إلى أصحابها، وهذا ينبغي أن يكون دَيْدَن المسلم في صباحه ومسائه، يُتبع كل ذنب توبة من غير تأخير، ولكن التوبة تتأكد أكثر عند كل سفر وخصوصاً سفر الحج والزيارة للنبي ﷺ، إذ لا يليق بالمرء أن يترك بلده ليبيض صحائفه بأنوار الزيارة، وهي مسوّدة وملوثة بالذنوب، فليجتهد أولاً في التخلي عن الآثام والقبائح، حتى يكون أقرب للتحلّي بالأنوار والمنائح.

يقول الإمام العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله بعد كلام له عن ضرورة تقديم التوبة على زيارته ﷺ وما وقع لبعض الناس من حرمان الله له من الزيارة بسبب استغراقه بالذنوب والظلم للخلق، يقول:

«ووقع لغير واحد من الظلمة أيضاً أنه أخذ في أسبابها وسافر لها إلى أن وصل إلى قريب من المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ورأى آثارها، فخرج بعض خَدَمَة الحجرة الشريفة النبوية إلى الركب، يقول: أين فلان بن فلان، فدُلَّ عليه، فقال له: أنا رسول رسول الله ﷺ، يقول لك ﷺ: لا تدخل عليه فجلس يبكي على نفسه إلى أن دخل الناس للزيارة

(١) المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على البدع والعوائد: ٢/ ٢٢٠.

وخرجوا إليه فرجع معهم خائباً، وهو على كثير من الأسف والندم والعار والكآبة والظلمة.

فاحذر أيها الزائر أن تزور وأنت باقٍ على توابعك وفواحشك، فيقع لك نظير ذلك فتصير مُثلَة بين العالم في الدنيا والآخرة، لأنه ﷺ لا يفعل ذلك إلا بمن أيس من إصلاحه وقُطع بعدم فلاحه، بل ذلك دليل واضح على خاتمة السوء والعياذ بالله تعالى، فحينئذ ينبغي لك قبل أخذك في أسباب الزيارة أن تقدم بين يدي نجواك توبة صحيحة مستوفية لشروطها ماحية للذنوبك ساترة لعيوبك، مؤهلة لك للمثول في حضرة سيد المرسلين ووسيلة النبيين، حقق الله سبحانه وتعالى ذلك لنا آمين»[1].

٣ ـ الإكثار من الصلاة والتسليم على النبي ﷺ بحيث تستغرق أوقات فراغه كلها في طريقه إلى المدينة، ثم أثناء مقامه فيها، ويستدعي أثناء ذلك ما استطاع من الحضور على النحو الذي سبق أثناء الكلام عن الصلاة على النبي ﷺ.

٤ ـ فإذا وصل الزائر المدينة تأكد في حقه زيادة الصلاة والسلام عليه ﷺ واستحضر ما لهذه المدينة الشريفة من المكانة.

فكم عمّرت بالوحي والتنزيل، وكم تردّد فيها جبريل وميكائيل، وكم تعرج فيها وإليها الملائكة، وكم ضجت أرجاؤها بالتسبيح والتقديس، وكم شهدت من مشاهد، وكم مشى فيها ﷺ وصحبه الكرام.

وهناك كانت آخر منازل الجسد الشريف، ومنازل أكثر من عشرة آلاف من الصحابة دفنوا فيها.

---

(١) الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي الكريم ص ٦٠.

ومن هناك خرج النور زاحفاً إليك وإليّ وإلى أرجاء الأرض قاطبة، فأنقذ الناس من النار والظلمات.

وقد ذكر النبي ﷺ من فضائلها وفضائل الإقامة فيها ما لم يذكر في حق بقعة أخرى من بقاع الأرض، وكان ﷺ يقول: «ما على الأرض بقعة أحب إلي من أن يكون قبري بها منها»[١]، ويقول: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[٢]، وكان ﷺ إذا كان مسافراً فاقترب منها وأبصر أشجارها، ألقى رداءه على منكبيه وقال: «هذه أرواح طيبة» وحث دابته ﷺ كي تسرع استعجالاً لدخولها لحبه لها ﷺ[٣].

ولهذا كان مالك ـ رحمه الله ـ يفضلها على سائر البقاع، ويرى أن مدينة ضمت جسد النبي ﷺ لا أفضل منها ولو كانت مكة المكرمة.

وقيل له رحمه الله: أيهما أحب إليك، المقام هنا (يعني بالمدينة) أو بمكة؟ فقال: ههنا، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله ﷺ وجبريل ينزل من عند رب العالمين في أقل من ساعة[٤].

أرض مشى جبريل في عَرَصَاتها والله شرَّف أرضها وسماها

وكان رحمه الله لا يركب فيها دابة، ويقول استحيي أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة[٥].

---

(١) رواه مالك في الموطأ.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه ابن زبالة.
(٤) انظر المواهب اللدنية ٤/ ٦٠٥.
(٥) الشفا ص ٤١٥.

ونقل إليه ـ رحمه الله ـ أن فلاناً يقول تربة المدينة رديئة، فأفتى رحمه الله أنه يضرب ثلاثين دِرَّة وأمر بحبسه، فقالوا له: إنه رجل ذو قَدْر، فقال الإمام: ما أحوجه إلى ضرب عنقه: تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة[1].

فكل هذه المعاني وغيرها إذا تداعت إلى النفس، وانطلق المرء يتفكر فيها ويتدبرها، فلن يتمالك إذا دخل مدينة رسول الله إلا أن يخشع وأن يُظهر البِشْر، ويرقص قلبه، وتقرَّ عينه من غير تكلّف ولا تَعمُّل، ليكون بذلك قد حصَّل أدباً آخر من آداب الزيارة التي يذكرها أهل العلم ويحضون عليها الزائرين.

٥ ـ لا ينبغي للزائر أن يستعجل في مواجهة النبي ﷺ بل ينزل في مكان إقامته، فيغتسل غسل الدخول إلى المدينة، ويلْبَس البياض، ويتطيَّب، ويستاك ويأتي بسائر السنن الخاصة بدخول المساجد، وليتذكر أنه مقبل على مواجهة أشرف مخلوق، ومن كان خروجه من بلده لزيارته.

ويحدثنا الزارع بن عامر وكان في وفد من بني عبد القيس جاؤوا لرؤية النبي ﷺ فيقول:

«لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا (أي نتسابق في النزول عن دوابنا) نقبل يد رسول الله ورجله».

وانتظر الأشج حتى أتى عَيْبته (صندوق صغير) فلبس ثوبيه الأبيضين ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله فقبلها.

فقال له ﷺ: إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: «الحلم والأناة»[2].

---

(١) الشفا ص ٤١٦.

(٢) رواه أبو داود والبيهقي.

فلم يذمّ ﷺ استعجال من استعجل السلام عليه، ولكنه امتدح أناة الأشج.

يقول العلامة كمال الدين بن الهمام الحنفي في آخر كلامه عن الحج من كتابه فتح القدير:

«وإذا وصل إلى المدينة، اغتسل بظاهرها قبل أن يدخلها أو توضأ، والغسل أفضل، ولبس نظيف ثيابه، والجديد أفضل، وما يفعله بعض الناس من النزول بالقرب من المدينة والمشي على أقدامه إلى أن يدخلها حسن، وكل ما كان أدخل في الأدب والإجلال كان حسناً»[1].

٦ ـ التصدق بما يستطيع على من يظن أنه من أهل الحاجة من المجاورين أو الزائرين أو المقيمين أو غير ذلك فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

٧ ـ فإذا أراد الزائر دخول المسجد للسلام على النبي ﷺ بعد أن استعدّ لذلك بما سبق من الإكثار من الصلاة عليه ﷺ بكمال الحضور والأدب، وأتى بما استطاع من السنن، وقدم بين يدي المناجاة للنبي ﷺ صدقة، فحين ذاك يتوجه الزائر إلى المسجد فإن استطاع أن يمشي مشياً فليفعل، تواضعاً لله وإجلالاً لنبيه ﷺ، يمشي خاشعاً خاضعاً غاضّاً طرفه مشغولاً لسانه بالصلاة عليه ﷺ، وقلبه بالتفكر فيه ﷺ، وأنه سيدخل بعد دقائق إلى أشرف بقعة على

(١) فتح القدير: ٣/ ٩٤ .

(٢) سورة المجادلة آية (١٢). انظر الجوهر المنظم لابن حجر ص ٧٧.

سطح الأرض، وهي البقعة التي ثوى فيها جسده الشريف ﷺ، فلا ينظر إلى شيء مما حوله، ولا يتشاغل بالكلام مع أحد، لأنه منصرف بكليته إلى ما هو أعظم وأهم.

٨ ـ فإذا وصل المسجد دخله برجله اليمنى وأتى بدعاء دخول المسجد، ثم يتوجه إلى الروضة (وهي مكان معروف بين المنبر والحجرة) فإن وجد فيها سَعَة فبها، وإلا اختار لنفسه مكاناً فارغاً قريباً منها، بحيث لا يؤذي ولا يؤذَى، فيصلي ركعتين تحية لمسجده ﷺ، بكمال الخشوع والحضور، مستحضراً أنه يصلي في مسجد لا كالمساجد، بل إنه يصلي في مكان صلى فيه النبي ﷺ نفسه وأصحابه الكرام معه.

٩ ـ فإذا فرغ من الصلاة قصد المواجهة الشريفة، فيقف قبل الدخول على النبي ﷺ قليلاً كالمستأذن عليه، وليقوِّي في قلبه التوجه على رسول الله ﷺ، وليستحضر في ضميره عِظَم المقام الذي هو داخل عليه وواقف بين يديه، وليستعن بالله في رعاية الأدب في هذا الموقف المهيب.

١٠ ـ ثم يمشي الزائر وهو على هذه الحالة إلى المواجهة الشريفة، فيقف قبالة حجرته ﷺ غاضّاً طرفه غير متشاغل بالنظر إلى شيء من موجودات ذلك المكان وزينته، ولتبدأ بعد ذلك تجربة من أعظم التجارب الروحية التي قد يمر بها إنسان[1].

---

(١) إطالة الوقوف عند السلام عليه ﷺ هو أحد المذهبين للعلماء، وهو رأي ابن حجر ورجحه النووي وأكثر أهل العلم كما في الجوهر المنظم ص ٧٧.

ثالثاً: مع المحبين في المواجهة الشريفة:

كثير من الناس يدخلون إلى المواجهة الشريفة بقصد زيارة النبي ﷺ والسلام عليه، فلا يرون في المكان إلا قفصاً نحاسياً ميتاً، فيقفون قبالته، ويلقون السلام على عَجَل، ثم يمضون.

وكثير من الناس يدخل إلى المواجهة وهو يحمل حذاءه بيمينه، ومنهم من يدخل ورائحة العرق أو الثوم تزكم أنوف الناس حوله، ومنهم من يدخل المواجهة بثياب النوم، ومنهم من يدخل وقد طاش بصره متأملاً في معالم الحجرة الشريفة وما حولها، ومنهم من يعلو صوته بالكلام مع من حوله، ومنهم ومنهم...

وهذا كله مع منافاته الصريحة للسنة، ومنافاته للأدب، يُشعر بأن من وقع منه ذلك، لم يعلم من خواصّ النبي ﷺ شيئاً.

إنه ـ إذ تظهر منه تلك التصرفات ـ لم يرَ في الدخول على الحضرة النبوية إلا دخولاً على قبر من القبور لميت من الأموات، قُطع عن أهل الدنيا وهم قطعوا عنه، فلا يراهم ولا هم يرونه، ولا يسمعهم ولا هم يسمعونه، فلا أنوار ولا أسرار ولا نفحات ولا تجليات، وأين ذلك كله مع ميت من الأموات.

إن زيارة كهذه الزيارة، لا ينتظر منها أن تفعل الكثير لإشعال نار المحبة لرسول الله ﷺ في القلب، وليست هي التي نعنيها عندما نقول إن الزيارة والسلام على رسول الله ﷺ سبب من أسباب محبته ﷺ.

فهلمَّ ـ إذن ـ يا أخي نتجول مع هذه الطائفة من محبي رسول الله ﷺ لنراهم

ونصغي إليهم، وهم يواجهون رسول الله ﷺ في حجرته الشريفة بالمدينة.

١ ـ روى البيهقي عن محمد بن المنكدر أنه قال:

رأيت جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وهو يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، وهو يقول ههنا تُسكب العَبَرات[1] (الدموع).

٢ ـ روى ابن عساكر وغيره أن بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ نزل بداريا في أطراف دمشق، ثم إن بلالاً رأى النبي ﷺ وهو يقول: «ما هذه الجفوة أي بلال؟ أما آن لك أن تزورني» فانتبه رضي الله عنه حزيناً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر رسول الله ﷺ فجعل يبكي عنده، ومرَّغ وجهه عنده فأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبلهما، فقالا: نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله ﷺ في المسجد فعلا سطح المسجد، ووقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: «الله أكبر» ارتجت المدينة، فلما قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» ازدادت رجتها، فلما قال: «أشهد أن محمداً رسول الله» خرجت العواتق من خدورهن (أي خرجت النساء من بيوتهن)، وقالوا: بُعث رسول الله ﷺ فما رؤي يوم أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم[2].

وكان بلال ـ رضي الله عنه ـ قد امتنع أن يؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، ولما أذن الأذان المذكور لم يستطع أن يُتمه[3].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخه.

(٣) الكمال في أسماء الرجال للمقدسي في ترجمة بلال.

٣ ـ روى ابن النجار أن امرأة سألت عائشة أن تكشف لها عن قبر النبي ﷺ فكشفته، فبكت حتى ماتت[١].

٤ ـ روى أبو سليمان الداراني فيما ذكره عنه صاحب الإحياء أن أويس القَرَني[٢] ـ رضي الله عنه ـ لما دخل المدينة ووقف على باب مسجد رسول الله ﷺ، قيل له: هذا هو قبر النبي ﷺ، فغشي عليه، فلما أفاق، قال: أخرجوني فليس يَلَذّ لي بلد فيه محمد ﷺ مدفون[٣].

٥ ـ روى ابن عساكر وغيره بسنده عن محمد بن حرب الهلالي المعروف بالعُتْبي، قال:

كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال:

السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا

---

(١) المواهب اللدنية: ٤/ ٥٨١.

(٢) أويس القرني هو أويس بن عامر القَرَني من اليمن، لم يلقَ النبي ﷺ، ومع ذلك فقد قال فيه ﷺ: «أويس القرني خير التابعين بإحسان» ووصفه ﷺ لأصحابه وصفاً دقيقاً كما لو كان يراه، وأخبر أنه كان ممن لو أقسم على الله لأبرّ قسمه، وطلب ممن أدركه من أصحابه أن يسألوه الدعاء وأن يستغفر لهم.

ومكث عمر بن الخطاب يطلبه عشر سنين، يسأل عنه حجيج اليمن كل عام، حتى ظفر به في آخر سنين حياته فإذا هو راعٍ بالأجرة لا يعرفه أحد، ولا يأبه له أحد، فلما رآه بصفته التي أخبر بها رسول الله ﷺ أكبّ عليه يقبله ويسأله أن يستغفر له.

كان ـ رضي الله عنه ـ كارهاً للشهرة، يفرّ من كل مكان يعرفه فيه الناس، ويكشفون فيه سرّه، ولو لم يخبر به رسول الله ﷺ لما عرفه أحد، بل إنه لما مات أثناء غزو أذربيجان، أراد أصحابه أن يدفنوه فوجدوا قبراً محفوراً وماءً وكفناً، فدفنوه وصلوا عليه ومضوا، ثم رجعوا ليعلّموا قبره حتى يزوروه فيما بعد فما وجدوا للقبر أثراً، وكأنه سأل الله أن لا يعرفه أحد من أهل الأرض حيّاً وميتاً.

انظر مجمع الأحباب ٢/ ٨١.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ١/ ٢٤٤.

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دُفِنَت في القاع أعظُمُه ... فطاب من طيبهن القَاعُ والأكَم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنُه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال: ثم انصرف، فغلبتني عيناي، فرأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقال: «يا عتبي، الحق الأعرابي وبشره بأن الله تعالى قد غفر له»[2].

والبيتان المذكوران مكتوبان على عمودين ظاهرين عن طرفي الشباك النحاسي الذي يواجهه الزائر عند السلام على رسول الله ﷺ، يقرؤهما كل من دخل المواجهة حتى الآن، وإلى آخر الزمان إن شاء الله.

٦ ـ ويقول القسطلاني[3] صاحب المواهب اللدنية حاكياً لنا عن زيارته لمدينة رسول الله ﷺ:

«لما كنت سائراً لقصد الزيارة في ربيع الآخر سنة ٨٩٢، ولاح لنا عند الصباح جبل مفرِّح الأرواح المبشِّر بقرب المزار من أشرف الديار، تسابق

---

(١) سورة النساء آية (١٣٥).

(٢) انظر شعب الإيمان حديث رقم (٤١٧٨)، ومختصر تاريخ ابن عساكر: ٢/٤٠٨ والحديث ذكره الكثير من المصنفين في كتبهم كالنووي وابن الجوزي وابن قدامة.

(٣) هو الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر القسطلاني، ولد بمصر سنة (٨٥١ هـ) وأخذ عن علمائها، كان من أزهد الناس، عفيفاً، متقللاً من عشرة الناس، وكان صوته بالقرآن يبكي القاسي، وإذا قرأ في المحراب تساقط الناس من البكاء والخشوع. له تصانيف كثيرة، أشهرها كتاب «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» وهو كتاب ليس له نظير في سيرة النبي ﷺ وشمائله، وكان ـ رحمه الله ـ يقرؤه في مسجد النبي ﷺ بين المنبر والقبر عندما جاور هناك، توفي بالقاهرة ليلة الجمعة، سابع محرم سنة (٩٢٣ هـ).

الزوار إليه وتعالوا بالصعود عليه استعجالاً لمشاهدة تلك الآثار، والتماساً لمشاهدة تلك الأنوار، نبرقت لوامع الأنوار النبوية، وهبَّ عَرف نسمات المعارف المحمدية فطبنا، وغبنا إذ شهدنا أعلام ديار أشرف البرية.

ولما قربنا من ديار المدينة وأعلامها، وتدانينا من معاينة رباها الكريمة وآكامها (أي جبالها) وانتشقنا عرف لطائف أزهارها، وبدت لنواظرنا بوارق أنوارها وترادفت واردات المنح والعطايا، ونزل القوم عن المطايا، أنشدت متمثلاً:

أتيتك زائراً وودت أني ... جعلت سواد عيني أمتطيه

ومالي لا أسير على المآقي[1] ... إلى قبرٍ رسولُ الله فيه

قال رضي الله عنه:

ولما وقع بصري على القبر الشريف والمسجد المنيف، فاضت من الفرح سوابق العَبَرات (الدموع) حتى أصابت بعض الثرى والجدران:

أيها المغرم المشوق هنيئاً ... ما أنالوك من لذيذ التلاقي

ومُرِ العينَ أن تفيض انهمالاً ... وتُوالي بدمعها المهراق

هذه دارهم وأنت محبٌّ ... ما بقاء الدموع في المآقي؟![2]

٧ ـ وروى صاحب المواهب اللدنيّة عن أبي الفضائل الحموي، وهو أحد خدام الحجرة الشريفة، أنه شاهد زائراً أتى باب مقصورة الحجرة الشريفة،

---

(١) المآقي: العيون.

(٢) المواهب اللدنية: ٤/ ٥٧٧.

فطأطأ رأسه نحو العتبة، فحركوه، فإذا هو ميت، وكان أبو الفضائل الحموي فيمن شهد جنازته[1].

٨ ـ يحدثنا العارف بالله الأمير عبد القادر الجزائري الحسني[2] ﷺ عن زيارته لجده المصطفى ﷺ فيقول:

«لما بلغت المدينة طيبة، وقفت تجاه الوجه الشريف بعد السلام عليه ﷺ وعلى صاحبيه الذين شرفهما الله تعالى بمصاحبته حياة وبرزخاً، وقلت:

يا رسول الله، كلبك ببابك، يا رسول الله نظرة منك تكفيني، يا رسول الله عَطْفة منك تغنيني، فسمعته ﷺ يقول لي: «أنتَ ولدي ومقبول عندي»، بهذه السجعة المباركة، وما عرفت هل المراد ولادة الصلب، أو ولادة القلب؟ والأمل من فضل الله تعالى أنهما مرادتان معاً، فحمدت الله تعالى، ثم قلت في ذلك الموقف اللهم حقق هذا السماع برؤية الشخص الشريف، فإنه ﷺ

(١) المواهب اللدنية: ٤/٥٨١.

(٢) الأمير عبد القادر الجزائري العارف بالله المجاهد الشاعر، ولد في الجزائر عام ١٢٢٢هـ، وتلقى علومه هناك، لقي الشيخ خالد النقشبندي، وأخذ عنه، والشيخ محمود الكيلاني القادري، وأخذ عنه كذلك، ونشر طريقته في الجزائر حين عاد إليها، ومن أتباع هذه الطريقة شكل جيش المجاهدين الذي أثخن في الجيش الفرنسي الذي كان قد احتل الجزائر، وعندما هزمت فرنسا، اختار الإقامة في دمشق وصار فيها من كبار الأعيان، وألحت عليه الرغبة في الحج فلم يمنعه منها إلا برّه بوالدته، إذ كان ـ على علوّ قدره ـ يخدمها بنفسه ولا يكلها إلى أحد، فلما حجّ جاور بمكة، وأخذ عن الشيخ محمد الفاسي، وترقّى على يديه.
كان ـ رحمه الله ـ عالي القدم في العلم والمعرفة، كثير التهجد، كثير البرّ والصدقات، معظماً عند المسلمين والأوربيين، بل كان الفرنسيين يلقبونه بالقديس، لما رأوا من أحواله وكراماته وفي مرض موته كان يشتغل بالذكر والمراقبة، من غير أن يظهر تأوّهاً أو تضجراً، توفي في دمشق عام ١٣٠٠ هـ، ودفن بجوار الشيخ محي الدين بن عربي ثم نقلت رفاته إلى الجزائر بعد استقلالها.
انظر علماء دمشق وأعيانها: ٢/٧٨٨.

ضمن العصمة في الرؤية فقال: «من رآني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتمثل بصورتي»[١]، وما ضمن العصمة في سماع الكلام.

ثم جلست تجاه القدمين الشريفتين معتمداً على حائط المسجد الشرقي أذكر الله تعالى فصعقت وغبت عن العالم وعن الأصوات المرتفعة في المسجد بالتلاوة والأذكار والأدعية، وعن نفسي، فسمعت قائلاً يقول: هذا سيدنا التهامي، فرفعت بصري في حال الغيبة، فاجتمع به بصري وهو خارج من شبّاك الحديد من جهة القدمين الشريفتين، ثم تقدم إلى الشبّاك الآخر وخرقه إلى جهتي، فرأيته ﷺ فخماً مفخماً بارقاً متماسكاً، غير أن شَيْبه الشريف أكثر، وحمرة وجهه أشد مما ذكره أصحاب الشمائل، فلما دنا مني رجعت إلى حسي فحمدت الله تعالى، ثم جعلت أذكر الله تعالى، فصعقت كالأولى فورد عليّ قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾»[٢][٣].

٩ ـ يروي الشيخ صالح الفرفور ـ رحمه الله ـ عن شيخه المحدِّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني[٤] أنه سأل من كان حوله عند شرحه لكتاب المواهب اللدنّيّة للقسطلاني، إذا سلَّمتم على النبي ﷺ ألا تسمعونه يردّ عليكم؟ قلنا: لا، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا يدل أن هذا العارف كان يسمع النبيَّ ﷺ يردُّ عليه السلام كُلما سلَّم عليه.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الأحزاب، آية (٥٣).

(٣) المواقف للأمير عبد القادر، الموقف الثالث والثمانون.

(٤) المحدِّث الأكبر للشيخ صالح الفرفور: ص ٧٤ .

١٠ ـ في العام ٥٥٥ هـ خرج السيد العارف بالله الشيخ أحمد الرفاعي[١] ـ قدَّس الله روحه ـ إلى الحج، وكان هذا حجه الأول، وحين انتهى من أداء فريضة الحج توجه مشتاقاً لزيارة جدِّه الرسول الأعظم ﷺ.

ولما اقترب من المدينة، خلع نعليه، ومشى حافياً، وجاء إلى الروضة المطهرة ووقف أمام قبر جدِّه الرسول ﷺ من جهة القبلة وقال:

السلام عليك يا جدي، ثم أصابه حال عظيم، فأنشد:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تُقَبِّل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وفي مشهد عظيم من حجاج ذلك العام، الذي وقفوا معه للسلام على سيد البشر، امتدت يد المصطفى الأكرم ﷺ، بيضاء سوية طويلة الأصابع كأنها

---

(١) هو الشيخ أحمد بن علي الرفاعي، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد سنة ٥١٢ هـ في واسط من مدن العراق، ونشأ يتيماً، وتلقى العلوم على مشايخ عصره وبرع فيها حتى لقّب بالكبير كان شديد التعظيم لسنة رسول الله ﷺ، وكان يقول: «كمال مرتبة الولاية، هو كمال التخلق بخلق النبي ﷺ وكلما نقص الولي في هذه الرتبة نقصت مرتبته بنسبة نقصانه.

وكان كثير التواضع، عظيم الشفقة على الخلق، وربما جلس في الشمس، فتقف في ظله جرادة فيمكث لها حتى تطير ويقول: إنها استظلت بنا.

وكان كثير الصمت. وسأل مرة غلاماً: ابن مَنْ أنت؟ فقال الغلام: أيش فضولك؟ فصار ـ رحمه الله ـ يكررها ويقول: أدبتني يا ولدي جزاك الله خيراً.

يقول خادمه: عندما مرض ـ رضي الله عنه ـ مرض الموت، كان يمرغ وجهه ولحيته بالتراب ويقول: العفو، العفو.

توفي سنة ٥٧٨ وحضر جنازته ربع مليون مصلي، ومرقده معروف يزار في أم عَبيدة في العراق.

انظر كتاب الإمام أحمد الرفاعي ليوسف ومصطفى الرفاعي.

البرق من قبره الشريف، فَقَبَّلها ﷺ، وكل من حضر ينظر وقلوبهم تكاد تقفز من صدورهم لعِظَم ما شاهدته عيونهم[١]!.

يقول الإمام الشيخ عبد السميع الهاشمي الواسطي (وهو أحد المقدَّمين من أصحابه):

«وكنت مع الزوار في الحرم النبوي عام حجه الذي مدت له فيه يد النبي ﷺ، وشاهدت اليد النبوية ببركته ﷺ، وكان فيمن حضر: علي الهيتي، الذي هو الآن بين أظهرنا، والشيخ عَدِي بن مسافر، والشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ عزاز وغير رجل.

فلما تجلى الله عليه بهذه الموهبة العظيمة، والمنة الكريمة، وآن وقت انصراف جسمه من الحضور النبوي، اضطجع بباب الحرم، وأقسم على الناس أن يدوسوا كلهم عنقه، فكانت العامة تتخطى عنقه المبارك والخاصة انصرفوا من أبواب أخر، وكنت لديه وهو يبكي ويقول:

اللهم زدني تمكيناً وإيماناً ومعرفة بك وبنبيك ﷺ»[٢].

---

(١) انظر «سواد العينين»: ص ٥٩.

(٢) سواد العينين: في مناقب الغوث أبي العلمين ص ٦٠.

وقد ذكر قصة مدّ اليد للسيد الرفاعي، عدد كبير جداً من العلماء والأكابر وأفردوا لها التصانيف والمؤلفات، واستفاض خبرها عن النَّقَلَة الذين شاهدوها حتى بلغ مبلغ التواتر، وممن ذكرها من أهل العلم:

الإمام السيوطي في كتابه: «الشرف المحتَّم فيما منَّ الله به على وليّه السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه من تقبيل يد النبي ﷺ».

والشيخ أبو الهدى الصيادي في كتابه: «الكنز المُطَلْسَم في مد يد النبي ﷺ لوالد الغوث الرفاعي الأعظم».

=

وإنما أخرت ذكر هذا الموقف - وحقه أن يُقدَّم - لأختم به ختاماً مِسْكِيّاً يضعه الزائر نصب عينيه قبل الدخول إلى المراجهة.

= والعلامة محمود الألوسي في كتابه «الأسرار الإلهية شرح القصيدة الرفاعية» والإمام عبد الكريم الرافعي في كتابه «سواد العينين» المتقدم ذكره.
والشيخ عبد القادر الطبري في كتابه «كشف النقاب عن أنساب الأربعة الأقطاب».
والشيخ محمد سراج الدين الرفاعي في كتابه «صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار».
والإمام تقي الدين الواسطي في كتابه «ترياق المحبين».
والإمام العلامة الخفاجي في «شرح الشفا».
والإمام المحدث عز الدين أحمد النقاروتي في كتابه «النفحة المسكية» وقال فيه: «وقد أدركت - بحمد الله - خمسة رجال من حجاج تلك العام ومن الذين تشرفوا بذلك المشهد الكريم، نفعنا الله بهم».
وذكرهم بالاسم في كتابه الآخر «إرشاد المسلمين» فقال وهو يتحدث عن زيارته إلى قبر السيد أحمد الرفاعي في أم عَبيدة برفقة والده، في الصفحة: ٣٥:
«ففي يوم الجمعة نتحوا قبة المشهد الشريف الأحمدي وجاء الناس ألوفاً ألوفاً للزيارة، فأخذ أبي بيدي ووقفنا وإذا بشيخ كبير السن جليل القدر فحملني والدي إليه، وقبل والدي يده، وأمرني فقبلت يده وسأله لي وله الدعاء فدعا لنا ومشى.
فقال لي والدي: هذا الشيخ أحمد بن عبد المحمود الزَّيْعي، وهو من الذين كانوا خادم مدّت يد النبي ﷺ للسيد أحمد الرفاعي - رضي الله عنه - ورآها فيمن تشرف برؤيتها.
وبعد قليل جاء شيخ آخر ففعل والدي كما فعل أولاً وقبل يده وأمرني بتقبيل يده وبعد انصرافه للزيارة قال لي: وهذا من حجاج عام مدّ اليد وهو الشيخ مبارك بن جعفر الأوبري.
وبعد قليل جاء شيخ آخر ففعل والدي كما فعل بالأول، وبعد ذهابه للزيارة قال لي: وهذا منهم وهو الشيخ الجليل عبد المحسن الأنصاري الواسطي.
ورأيت الناس يزدحمون على كل واحد منهم يقبلون يده وقدميه ويعلو النحيب والبكاء من الجميع وذلك لتذكار عهد اليد الشريفة ومن مدت له رضي الله عنه». انتهى.
أقول: والذين ذكروا هذه المنقبة الجليلة من أهل العلم الثقات أكثر من أن يحصروا في هذا الموضع، وإنما أطلت في ذكر أسمائهم وكتبهم، وبعض النقول عنهم، لأن الأمر الخارق للعادة، يعسر على النفس تصديقه ما لم يثبت ذلك لديها بنقل صحيح أو رؤية حسية مباشرة، وكرامات الأولياء حق، والسيد الإمام أحمد الرفاعي من أجلهم قَدْراً وأبعدهم ذكراً، فإذا تكاثرت النقول عن الثقات بوقوع تلك الكرامة لهذا الولي فلا معنى البتة لاستبعاد وقوع ذلك، بل ذكر الإمام السيوطي في كتابه (الشرف المحتم) أن تكذيب هذا الأمر بعد ثبوته، فيه من عواقب النفاق وإساءة الظن بأولياء الله وخاتمته ما يخشى معه على صاحبه سوء الخاتمة.

رابعاً: وأنت... التحق بركب المحبين:

هل يمكن للإنسان أن يزور النبي ﷺ فيقع له كما وقع لهؤلاء ولغيرهم، وما أكثرهم؟

هل يمكن للإنسان أن يزور رسول الله ﷺ فينال من فيضه ومدده كما نال هؤلاء المحبين الصادقين؟

لقد دخل كعب بن زهير على رسول الله ﷺ وكان قد أظهر من العداء للإسلام ونبيه ما جعل النبي ﷺ يهدر دمه في عدد ممن اشتد كيدهم للمسلمين ولنبي الإسلام.

دخل كعب على رسول الله في مسجده ـ كما ستدخل أنت إلى مسجده ـ فأنشد قصيدته الشهيرة التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول مُتيَّم إثْرَهَا لم يُجْزَ مكبول

إلى أن قال:

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فلما فرغ كعب، قام من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم فخلع عليه بردته الشريفة، تلك البردة التي ليس للمسلمين الآن أثر منسوب إلى النبي ﷺ أعز على قلوبهم منها، خلع عليه سعادة الظاهر وسعادة الباطن ذاك الرؤوف بالمؤمنين الرحيم[1].

وأنت فادخل على ذاك النبي الكريم كما دخل كعب، وقع بروحك على قدمي حبيبك ويديه تقبلهما، وتذكر كم فرطت، وكم أسأت، وكم جهلت،

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٧٠٧.

وتذكر أنك مستحق للطرد والإبعاد بما تحمله من عيوب وذنوب وكرر مع كعب معتذراً..

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

وكرر مع البوصيري[1]:

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضُرّ من ورم

لقد كان أهل الأمراض يدخلون على رسول الله بأمراضهم الحسية والمعنوية الجسدية والقلبية، فما أن يمسح بيده الشريفة على أجسادهم وصدورهم حتى يتقلب الحالُ غيرَ الحال، ويصير النفاق إيماناً، والبغضاء حباً.

يروي ابن عمر رضي الله عنهما فيقول:

كنت عند النبي ﷺ إذ جاء حرملة بن زيد فجلس بين يدي رسول الله فقال: يا رسول الإيمان ههنا (وأشار إلى لسانه) والنفاق ههنا (وأشار إلى صدره) ولا يذكر الله إلا قليلاً.

---

(١) البوصيري هو محمد بن سعيد الصنهاجي المشهور بالبوصيري، له في مدح النبي ﷺ قصائد طنانة، أشهرها قصيدة البردة التي اقتبسنا منها أعلاه، يقول البوصيري: أصابني فالج أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه، فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسلت به ﷺ، ونمت فرأيت رسول الله ﷺ فمسح على وجهي بيده الكريمة وألقى عليّ بردة، فانتبهت ووجدت فيّ نهضة فخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء، فقال: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك - وذكر أولها - وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ، ورأيته يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة، فأعطيته إياها. ومن ثم شاعت تسميتها بالبردة، وهي قصيدة مشهورة تقرأ كثيراً في مجالس الصلاة على النبي ﷺ عندنا في الشام.
انظر الوافي بالوفيات للصفدي: ٣/ ١١٢.

فسكت عنه ﷺ فردّد ذلك عليه حرملة (أي يشكو أمره إلى النبي ﷺ) فأدخل النبي ﷺ بطرف لسان حرملة فقال: اللهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً، وارزقه حبي وحب من يحبني وصيّر أمره إلى الخير.

فيقول حرملة: يا رسول الله إنَّ لي إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ألا أدلك عليهم؟

فقال ﷺ: «من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك، ومن أصرّ على دينه فالله أولى به، ولا نخرق على أحد ستراً»[1].

ويروي شيبة بن عثمان الأوقصي أنه أراد أن يغتال النبي ﷺ، يقول: فجئت النبي ﷺ من خلفه فدنوت ثم دنوت حتى إذا لم يبق إلا أن آتِره (أقتله) بالسيف وقع لي شهاب من نار كالبرق، فرجعت القهقرى، فالتفت إلي ﷺ فقال: تعالَ يا شيبة، فوضع يده على صدري فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي وبصري[2].

وكان أبو محذورة من أشد الناس كفراً وبغضاً للنبي ﷺ فسمع صوت مؤذن رسول الله ﷺ يوماً، فصار يحاكي الأذان محاكاة المستهزئ الساخر.

فسمعه ﷺ فدعاه، ثم قال له: قم فأذِّن.

يقول أبو محذورة:

فقمت ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه ابن حجر في الإصابة، وابن سعد في الطبقات.

ناصيتي، ثم أمرَّها على وجهي مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم بلغت يد رسول الله سُرَّة أبي محذورة، ثم قال: «بارك الله فيك».

يقول أبو محذورة:

فذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ.

فكان رضي الله عنه لا يجزُّ ناصيته ولا يفرقها لأن رسول الله مسح بيده عليها[1].

وروى ابن هشام أن فضالة بن عمير همَّ أن يقتل رسول الله وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما اقترب من رسول الله ﷺ قال له ﷺ: «أفضالة؟ (أي يا فضالة)».

فقال: نعم يا رسول الله.

قال ﷺ: «ماذا كنت تحدث نفسك؟»

فقال: لا شيء، كنت أذكر الله.

فضحك ﷺ ثم قال له: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدر فضالة فسكن قلبه.

يقول فضالة:

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه[2].

ولقد كان ﷺ كثيراً ما يقول: «وددت أني أرى إخواني»، فيقولون: ألسنا إخوانك يا رسول الله، فيقول: «بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، وأنا فَرَطهم على الحوض»[3].

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه ابن هشام في السيرة.

(٣) رواه مسلم.

فادخل على رسول الله بأمراضك وأوزارك، واشكو إليه حالك، وقل له:

يا رسول الله أنا واحد ممن وددت أنك تراهم، قد أقبلت إليك زائراً من مكان بعيد، طمعاً بمسحة شافية لقلبي المريض، لأخرج فيها من عندك كما كان أهل الأمراض يخرجون بها من عندك يا سيدي يا رسول الله.

وناجه بقول البوصيري:

كم أبرأت وَصِباً باللمس راحته ... وأطلقت أَرِباً من رِبْقَة اللمَمِ[1]

يا أكرم الرسل ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العَمِمِ

ولن يضيق رسولَ الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلَّى باسم منتقم

وبقول شوقي:

لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يُمسِك بمفتاح باب الله يغتنم

وابك بين يديه غير مُتباكٍ، ولا مُتكلِّفٍ لكلام تقوله، واعتذر إليه وسله أن يستغفر لك ويحنو عليك كما كان يفعل مع كل مستغفر وسائل.

كل ذلك وأنت مستحضر لأنواره وصورته التي عرفتها فيما سبق، وأنت على يقين بأنه لا يخفى عليه وقوفك بين يديه ولا مناجاتك له.

يقول حجة الإسلام الغزالي رحمه الله:

«وأما زيارة رسول الله ﷺ فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفناه وتزوره ميتاً كما تزوره حياً.. واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك

---

(١) وَصِباً: مريضاً، أَرِباً: صاحب حاجة، اللمم: الذنوب.

وصلاتك، فمثّل صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بإزائك، وأحضر عظيم رتبته في قلبك»[1].

فإذا شفيت من هذا اللقاء غليلك، وقضيت من زيارة الحبيب وَطَرَك فاستأذن في الخروج من مقامه، غير راغب عنه، ولا زاهد فيه، ثم تقدم تجاه صاحبي رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر فسلم عليهما، وتذكر مكانة كل واحد من رسول الله ﷺ ومواقفه المشهودة، فإذا أردت الصلاة، فلا تجعل حجرته

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٤٤، وقد اعتمد الإمام الغزالي وغيره في تقرير أن النبي ﷺ عالم بمن يزوره، ويسلم عليه وأنه يسمعه ويرد عليه على مجموعة كبيرة من الأدلة فمن ذلك:
قوله ﷺ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» رواه البيهقي وصححه وغيره.
وقوله ﷺ: «مررت بموسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي» رواه مسلم.
وقوله ﷺ: «ما من أحد يسلم إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام».
وقوله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» رواه أحمد.
والأدلة جديرة بأن يجمعها كتاب لكثرتها، وقد جمع البيهقي رحمه الله جزءاً عن حياة الأنبياء في قبورهم.
ولابن القيم ـ رحمه الله ـ تحقيق في هذا في أول كتابه «الروح» قرّر فيه أن الأموات عموماً يعرفون من يزورهم ويسمعون كلامه، وقال: «والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحيّ له، ويستبشر به» «الروح» ص ٥.
وحاصل هذا كله أن النبي ﷺ حي حياة برزخية كاملة لائقة بمقامه، وأنه يسمع صوت من يسلم عليه ويناجيه، ويعلم بوقوفه بين يديه، واستشفاعه به ﷺ، وإن كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون حياة متناسبة مع أحوال الآخرة، فلا شك أن مرتبة الأنبياء في ذلك فوق مرتبتهم، فليعلم كل من يدخل على النبي ﷺ في مسجده ذلك جيداً، ولا يغفل عنه أبداً.
وقد روى الدارمي وغيره أن يزيد بن معاوية لما حاصر المدينة وقتل من أهلها من قتل في وقعة الحَرّة، خرج الناس من المسجد النبوي، ولم يؤذّن في المسجد ثلاثة أيام، ولم يبق فيه إلا سعيد بن المسيّب، فكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ.
ولهذا كله ـ والله أعلم ـ كره الإمام مالك أن يقال زرنا قبر النبي ﷺ، لأن فيها تشبيهاً لزيارته ﷺ بزيارة الأموات من الناس، وأحبّ أن يقال: سلمنا على النبي ﷺ، ولو قيل: زرنا النبي ﷺ بدون ذكر القبر لزالت الكراهة على ما ذكره القاضي عياض في الشفا ص ٣٤٠.

وراء ظهرك، ثم اخرج من المواجهة لتبدأ عملاً جديداً من أعمال القلوب لبناء لبنة جديدة في بناء الحب لرسول الله ﷺ.

خامساً: ساعات مع رسول الله ﷺ:

بالرغم من أن مسجد النبي ﷺ ومدينته قد طرأ عليها كثير من التغيير بحكم التطوير العمراني إلا أن أسرار المسجد والمدينة وأنوارهما بقيا ببقاء مصدر الأسرار ومَعْدِن الأنوار فيهما ﷺ.

ومع ذلك فمسجد النبي ﷺ بحدوده القديمة لم يزل محتفظاً بتقسيماته التي كانت عليها في الزمان الأول. فالمحراب والمنبر والروضة والأسطوانات (الأعمدة) ومحراب التهجد، وحجرة السيدة عائشة، وحجرة السيدة فاطمة، كلها ما زالت في مكانها مع التغير الذي طرأ على بنائها وهندستها جراء عمليات الترميم والتحديث التي لحقت بالمسجد منذ أن كانت أعمدته جذوع النخل، وجدرانه من اللَّبِن، وحتى صار إلى ما هو عليه الآن.

وذلك أن كل من تشرف بتجديد المسجد عبر التاريخ، لم يغير في مواضع مكوناته شيئاً أبداً، لما لها من خصوصية ثابتة عن السلف.

وهكذا فإذا أتيت إلى موضع الأسطوانة المخلَّقة[1] في المسجد فاستقبلتها

---

(١) الأسطوانة المخلّقة: هي الأسطوانة التي عن يمين محراب النبي ﷺ الحالي، مكتوب عندها على قائمة المحراب اليمنى: «هذا مصلى رسول الله ﷺ»، ومعنى المخلّقة أي المطيَّبة، والخَلوق هو الطيب، وذلك لأنها كانت تطيّب وتعطّر، وكان الناس ولا زالوا يحبون الصلاة عندها ويزدحمون عليها، لأنها كانت مكان صلاة النبي ﷺ للفرائض.
وكان إمام أهل المدينة مالك بن أنس رحمه الله حين يسأل عن أحب المواضع إليه من المسجد للصلاة فيقول: أما النافلة فموضع مصلاه ﷺ، وأما الفريضة فأول الصفوف. انظر وفاء الوفا للسمهودي: ٢/ ٨٧.

للصلاة، فلتحضر في قلبك أنك تصلي في موضع صلاة رسول الله ﷺ نفسه، وإنك عندما تسجد تضع جبهتك في موضع قدميه ﷺ، وأن الجذع الذي كان يستند إليه رسول الله ﷺ عندما يخطب، ويستقبله عندما يصلي كان في موضع تلك الأسطوانة، وقد دفن في ذلك الموضع كما قيل.

نقف حيالها، ومثّل رسول الله ﷺ في قلبك، وموقفه منها مصلياً وخطيباً، واملأ من طلعته البهية عين قلبك.

وإذ أتيت أسطوانة السرير[1]، فمثّل في قلبك سرير رسول الله ﷺ الذي كان يوضع له في ذلك الموضع، عندما كان يعتكف في عشر رمضان الأخير، سرير من القصب، ربما اضطجع عليه رسول الله ﷺ فأثر في جنبه الشريف.

وإذا أتيت أسطوانة الوفود[2]، فمثّل في قلبك جلوسه ﷺ عند تلك الأسطوانة وقد ارتدى ثيابه التي كان يستقبل بها الوفود، وجلس لهم مبايعاً ومعلماً وواعظاً، وجلسوا هم بين يديه يقتبسون من نور الحضرة النبوية في ساعة، ما يغني عن علم سنين.

هناك قدم الأشعريون على رسول الله يرتجزون: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

---

(١) أسطوانة السرير: هي الأسطوانة الثانية في الجدار الغربي من الحجرة النحاسية التي فيها الضريح الشريف، مكتوب عليها هذه أسطوانة السرير، والواقف قبالتها، يكون واقفاً قبالة رأسه ﷺ في ضريحه، وقد كانت هذه الأسطوانة هي المكان الذي يجلس عنده مالك عندما يقرر دروسه في حلق المسجد النبوي.

(٢) أسطوانة الوفود وهي أسطوانة إلى الخلف من أسطوانة السرير باتجاه الشمال، مكتوب عليها هذه أسطوانة الوفود، وكانت تسمى أيضاً اسطوانة القلادة لِشَرَف من كان يجلس إليها. وانظر أخبار الوفود في طبقات ابن سعد: ١/ ٢٩١ وما بعد.

وهناك دعى النبي ﷺ لقبيلة دَوْس بعد أن استعصت على الدعاة: «اللهم اهْدِ دوساً، فأتته دَوْس بعد ذلك مسلمة».

وهناك أتاه وفد خولان، فذكروا له ما لاقوه وما بذلوه في سيرهم ابتغاء زيارته، فقال لهم ﷺ: «أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ، فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير حسنة، وأما قولكم زائرين، فإنه من زارني بالمدينة كان بجواري يوم القيامة».

وهناك قال النبي لوفد الأزْد لما رأى من إيمانهم وفقههم: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

وهناك رحّب النبي بوفد عبد القيس فبشَّ في وجوههم، وقال لهم: «مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى».

تذكر ذلك كله، وأحضره في قلبك، وتأمل فيه وفي معانيه.

وسل نفسك: ترى ما هو نصيبي من النبي ﷺ وقد جئته مبايعاً؟

وتخيّل بأي شيء سيخصك رسول الله ﷺ وقد قدمت عليه كما كانت تقدم عليه الوفود؟

وإذا أتيت أسطوانة التوبة[1]، فأحضر في قلبك أبا لبابة بن عبد المنذر، وقد ربط نفسه في تلك الأسطوانة لذنب أصابه، فحلف لا يذوق طعاماً ولا يشرب شراباً حتى يموت أو يتوب الله عليه، ولما نُقل خبره إلى النبي ﷺ قال:

---

(١) أسطوانة التوبة هي المعروفة بأسطوانة أبي لبابة، وقد كتب ذلك في أعلاها وهي الرابعة من المنبر الشريف.

أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذا قد فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله من السَحَر وهو في بيت أم سَلَمة - رضي الله عنها - فخرجت وبشرته، وقام الناس ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه[1].

وأنت أيضاً فاربط روحك بهذه الأسطوانة عسى أن تمتد إليك يده ﷺ الحانية فتطلقك من إسار ذنوبك ومعاصيك.

وهكذا كل أسطوانات المسجد القديم فقد صح في الحديث أن تلك الأسطوانات كانت مصليات لكبار الصحابة يبتدرونها لأداء السنن خلفها[2].

يقول ابن النجار: فعلى هذا جميع سواري مسجد النبي يستحب الصلاة عندها لأنه لا يخلو أن كبار الصحابة صلوا إليها[3].

وليحاول الزائر أن يصلي خلفها كلها، فربما وقف بذلك في الموقف نفسه الذي كان يصلي فيه أبو بكر، أو عمر، أو علي، أو عثمان، أو طلحة، أو الزبير أو أُبَيّ، أو سعد، أو غيرهم من أحباب الحبيب ﷺ ورضي الله تعالى عنهم.

ثم تحوّل إلى الجهة الشمالية من المقصورة النحاسية التي تضم ضريحه ﷺ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٧.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة إلى الأسطوانة.

(٣) أخبار مدينة رسول الله ﷺ: ص ٩٣.

حيث تجد محراب التهجد[١]، فهناك كان ﷺ يطرح حصيراً كل ليلة فيصلي فيه صلاة القيام، فلما رآه الناس، تكاثروا خلفه ليلة بعد ليلة، ثم إنه ﷺ لم يخرج إليهم ليلة من الليالي، ولما سألوه عن ذلك قال ـ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ـ: «رأيت الذي صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم»[٢].

فلتقم من الليل في ذلك الموقع، ولتمثّل أمامك رسول الله ﷺ يصلي على حصيره وأنت واقف خلفه.

والمشاهد والمزارات في المدينة المنورة كثيرة جداً، يطالعها الزائر في كتب خاصة بهذا الموضوع، ومن أهم تلك المزارات:

مسجد قباء وهو أول مسجد صلى فيه ﷺ وذلك عند دخوله المدينة في طريق هجرته من مكة.

ومسجد الفتح حيث كان ﷺ يقف ويصلي عند حفر الخندق على سفح جبل سَلْع أثناء غزوة الأحزاب.

وجبل أُحُد وهو الجبل الذي قال فيه ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»، وفيه الغار الذي أوى إليه النبي ﷺ في آخر معركة أحد[٣].

والغار على حاله إلى الآن ويدخله الداخل فيجلس حيث جلس رسول الله ﷺ ويستحضر حالته ﷺ في تلك الغار وقد شُجَّ رأسه الشريف، وكسرت

---

(١) محراب التهجد يقع شمال المقصورة، في منطقة مرتفعة عن أرض المسجد بدرجة، ومحاطة بدرابزين وقد غطي المحراب الآن برفوف توضع عليها المصاحف.

(٢) رواه أحمد.

(٣) غار جبل أحد معروف عند سفح أحد ويعرفه أهل الحي هناك، وهو على حالته الأولى إلى الآن.

رباعيته، وأصابه من الجراحات والبلاء ما لم يقع له في موقف آخر من مواقف سيرته إلا في الطائف، وكل ذلك بسبب مخالفة الرماة لأمره ﷺ في القصة المعروفة.

ويفعل الزائر مثل هذا في كل قدم يرفعها أو يخفضها في مسجده ﷺ وفي مدينته، ليعيش بروحه الحياة التي كان يعيشها أصحابه ﷺ معه في القرن الأول، ولتكون زيارته للمدينة مادة الحب الذي يريد أن يعمر بها قلبه، ولتكون إقامته في المدينة، إقامة في جوار النبي ﷺ حقاً، قلباً وقالباً، روحاً وجسماً، وعند ذلك، فإن سيد السادات يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وهو بأبي وأمي أحق من أوفى الذمة، وأنفذ الوصية.

جعلنا الله من أهلها، حتى ننال من خيرها وبركتها آمين.

الباب الثالث

أخبـــار المحبيـــن

هذه سياحة مع من صحت محبته لرسول الله ﷺ، فأظهروا من آثار المحبة وأعراضها ما يستحق أن يحتذى، فإننا إذا قررنا أن المحبة مما يمكن اكتسابه، فقد جاز لنا أن ننظر في أخبار المحبين له ﷺ، لنرى كيف تكون حال المحب للنبي ﷺ وأي أثر تركته المحبة على ظاهره وباطنه، وما هي علامات ذلك وآثاره.

فلتتعلم من هؤلاء كيف تكون المحبة، وكيف يكون الأدب، وكيف يكون التعلق بالجناب النبوي، وكيف يكون العكوف على الباب المصطفوي، وكيف يكون الشوق، وكيف يكون البكاء من فرط الحب، وكيف يكون التحول من كثرة التفكير في المحبوب، وكيف يكون التفاني في الخدمة، وكيف تبذل في سبيل المحبوب المُهَج.

فلتتعلم منهم ذلك، ولتلتمس ذلك في أنفسنا ولنرَ أين نحن منهم.

أظَهَرت لدينا تلك الآثار والعلامات حتى تصح لنا دعوى محبته ﷺ؟

أم أنه ليس لنا من ذلك كله إلا الدعاوى العريضة التي يكذبها الواقع؟

وقد قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

الجذع العاشق

«ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلم
أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس»
رواه أحمد

كان مسجد رسول الله ﷺ غاية في البساطة، فأعمدته من جذوع النخل، وأرضه مغطاة بالحصى والتراب، وسقفه من جريد لو شاء المصلّي أن يناله بيده لفعل.

ولم يكن للمسجد في أول أمره منبر ولا محراب كما هو الحال الآن، فكان ﷺ إذا أراد أن يخطب يعتمد بيده على جذع نخلة منصوب في جهة القبلة.

فلما كثر المسلمون وزادت أعداد المصلين، صار النبي ﷺ إذا خطب لم يره من هم في مؤخّرة المسجد بوضوح، هذا مع ما كان يلقاه ﷺ من التعب نتيجة وقوفه الطويل للخطبة دون جلوس، وكان ﷺ قد كبرت سنه.

فلكل ذلك رأى أصحاب رسول الله ﷺ أن يستأذنوا في صنع منبر من ثلاث درجات، ليرقى عليه فيراه الناس، ويجلس عليه إذا تعب. فأذن ﷺ بذلك وصنع المنبر، ووضع على بعد أمتار من الجذع، بحيث يكون الجذع بين المنبر وحجرة النبي ﷺ.

وحان وقت خطبة الجمعة فخرج ﷺ من حجرته يريد المنبر، فلما جاوز الجذع، ولم يقف عنده للخطبة كعادته، وصَعِد المنبر، بدأ الجذع يصرخ

صراخاً شديداً وئن أنيناً يشبه أنين إنسان متوجع، حتى ارتجّ المسجد وتساقط الغبار، وجعل الصحابة يبكون بكاءً شديداً تأثراً بهذا الجذع العاشق، كل ذلك والجذع يواصل أنينه.

فنزل ﷺ عن المنبر، ورجع إلى الجذع الذي كان قبل قليل قد اجتازه فوقف عنده كما كان يقف قبل صنع المنبر، فوضع يده الشريفة عليه، وضمه إلى صدره الشريف حتى بدأ يسكن صوته شيئاً فشيئاً.

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه (أضمه إلى صدري) لبقي يحنّ إلى قيام الساعة شوقاً إلى رسول الله»[1].

وهذه القصة نقلها جمع كبير من الصحابة حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي، أي إنها صحيحة قطعاً لكثرة من شاهدها ونقلها.

وكان الحسن يذكر هذه المعجزة ويقول: يا معشر المسلمين، الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه ﷺ[2].

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي: ٢/٥٦٣، والشفا: ١/٣٠٦، وأصل القصة رواه أصحاب الكتب الستة على اختلاف في الروايات والتفاصيل.
وقد بقي الجذع على حاله إلى أن وسع المسجد في عهد عثمان رضي الله عنه، فأخذه أبي بن كعب حتى فني عنده، وقيل دفن في موضعه.
وموضع الجذع الآن في مسجد النبي هو ما يسمى الأسطوانة المخلقة، وقد كتب عند ذلك الموضع: «هذا مصلّى رسول الله ﷺ».

(٢) صحيح ابن حبان ٨/١٥١.

خائف من الفراق ... حتى في الجنة!

إنا بـــك لـــم أجـــن يـــا ســـيدي فـــبـــمـــن؟

شيان الصاب

كان لرسول الله ﷺ خادم اسمه ثوبان وهو واحد من مجموعة من الصحابة كانوا يخدمون النبي ﷺ طلباً لبركته وطمعاً في إرضاء قلبه، وإلا فإن النبي ﷺ لم يتخذ أحداً من أصحابه لخدمته ولكنهم كانوا يتسابقون في الخدمة طلباً لذلك الشرف الرفيع.

وكان ثوبان فيما يروي الرواة شديد الحب لرسول الله قليل الصبر عنه، والحب إذا تمكَّن من القلب فلا بدَّ أن تظهر آثاره على البدن، فدخل ثوبان على النبي ﷺ، وقد تغيَّر لونه ونحل بدنه.

فقال له ﷺ: ما غيَّر لونك؟

فقال ثوبان: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع، غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة، فأنا في منزلة أدنى من منزلتك، (أي فتقل رؤيتي لك) وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً.

لقد احتال ﷺ لرؤية النبي ﷺ في الدنيا، فجعل نفسه خادماً، فإن الخادم لا يُحجب عن المخدوم، بل يلازمه دائماً حتى في أوقاته الخاصة، فعل هو ذلك كما فعله غيره من الصحابة، ولكن شدة الحب جعلته يتفكر في ذلك اليوم الذي يُحال فيه بين الأم ورضيعها، والخل وخليله، كيف سيراه فيه؟ وما الحيلة هناك؟

ولما سمع رسول الله ﷺ من ثوبان ذلك، لم يرجع عليه بجواب، فأنزل الله من سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

فدعا به النبي ﷺ فقرأ الآية عليه.

إن هذه الأعراض ليست غريبة على من ذاق الحب وعانى الشوق، فالنحول وتغير اللون وذبول العينين وغلبة الخوف، كلها أشياء تراها وتسمع عنها في قصص الحب بين أمّ وولدها أو بين شاب وفتاة، وهناك تسمع الآهات والزفرات، وتطول الليالي ويقل الطعام وورو..

فهل وقع لنا شيء من هذه الأعراض عندما نتبجح بالتصريح بأننا نحب النبي ﷺ؟!

(١) سورة النساء، آية (٦٩)، وقصة ثوبان عند الطبراني في المعجم الصغير والأوسط.

فاتبعوني يحببكم الله

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

سورة الأعراف

الاتِّباع يختلف عن الطاعة، فالطاعة قد يكون سببها الخوف من العقوبة وقد يكون المحبة، أما الاتباع فهو الإقبال على الشيء بالكُلِّية والتوغل فيه بالاقتداء، مع تعظيم المتَّبع ومحبته، أي إن الاتباع لا يكون إلا للمحبة لا للخوف، وهو بهذا يختلف عن الطاعة، لأن الحامل على الطاعة قد يكون الحب وقد يكون الخوف.

ومن هنا تفهم دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فربط محبة الله، والهداية باتباعه ﷺ لا بمجرد طاعته.

وهكذا كان أحباب النبي، كانوا يراقبون كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته ﷺ فيتابعونه فيها حتى في الأمور التي لا تتعلق بالتشريع، كأحوال مشيه ولباسه وطعامه وغير ذلك، وقد قدمنا عند كلامنا عن الحب وأثره في المحب إن هذا عرض شائع وعلامة لازمة من أعراض وعلامات الحب، يستوي في ذلك حب الأخيار وحب الأشرار، فالمحب - وبدون إرادة منه - يُطْبَع بطَابَع المحبوب بحسب درجة حبه، حتى يحب طعامه ولباسه وطريقة مشيه وكلامه وغير ذلك.

ومن يتتبع ذلك مع أحباب النبي ﷺ يجد من ذلك العَجَب.

يحدثنا أنس ـ رضي الله عنه ـ أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، يقول أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرَّب إلى رسول الله خبزاً من شعير ومَرَقاً فيه دُبَّاء (يقطين) وقديد (لحم) قال أنس: فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حوالي الصحفة، فلم أزل أحب الدباء منذ يومئذ[1].

وقرَّب أبو أيوب طعاماً للنبي ﷺ فيه ثوم، فلم يأكل منه النبي ﷺ. فقال له أبو أيوب: أحرام هو؟ فقال ﷺ: «لا، ولكني أكرهه»، فقال أبو أيوب: فإني أكره ما تكره[2].

وروى عروة بن عبد الله عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه قال:

أتيت رسول الله ﷺ في رَهْط من مُزَيْنَة، فبايعناه وإن قميصه لمطلق الأزرار.

يقول عروة: فما رأيت معاوية ولا ابنه قطّ إلا مَطلِقي أزرارهما في شتاء ولا حر، ولا يزرِّران أزرارهما أبداً[3].

وسألت امرأة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خضاب الحنّاء، فقالت: لا بأس به، ولكني أكرهه، كان حبيبي رسول الله ﷺ يكره ريحه[4].

وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يتابع رسول الله ﷺ في كل شيء، حتى لو رأى رسول الله ﷺ جلس تحت شجرة لجلس تحتها، أو أناخ دابته في مكان، لأناخ دابته في ذلك المكان.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وأبو داود.

(٤) رواه أحمد وأبو داود.

ورأى الصحابة رسول الله ﷺ خلع نعليه أثناء الصلاة، فخلعوا نعالهم جميعاً فلمّا قضيت الصلاة سألهم ﷺ: ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟

قالوا: رأيناك ألقيت نعلك فألقينا نعالنا.

فقال ﷺ: إن جبريل أتى فأخبرني أن فيها قذراً[1].

ولما واصل رسول الله ﷺ الصيام، واصلوا هم أيضاً، حتى أخبرهم ﷺ بأنه ليس مثلهم، بل إنه يبيت فيطعمه ربه ويسقيه.

وصام ﷺ في السفر، فصاموا هم أيضاً وقد شقّ عليهم ذلك، فلما رأى ﷺ ما لاقوه من الشدة، أفطر ـ رحمة بهم ـ فأفطروا.

ونزع النبي ﷺ خاتمه الذهبي (عند تحريم الذهب على الرجال)، فنزعوا خواتمهم بدون تردد أو استفسار، وحسر ﷺ عن ساقيه وجلس على بئر أريس ففعل أبو بكر وعمر كفعله من غير نظر أو تفكير.

وكاد أصحابه ﷺ يقتتل بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق، عندما رأوا النبي ﷺ يحلق رأسه الشريف ليتحلل من عمرته في قضية الحديبية.

وقد كان ﷺ يعلم أن قلوب مَنْ حوله من المحبين تسجل كل حركة، وكل كلمة، وكل نَفَس، فكان ﷺ إذا فعل الفعل لا للتشريع، وإنما بحكم العادة الشخصية، يبين لمن حوله ذلك رحمة بالأمة من أن تلتحق عاداته الشخصية، بأحكام الحلال والحرام، فتقع الأمة في الحرج.

وهكذا، فلما سار ﷺ في طريق محدد إلى عرفات قال مشيت من هنا وفجاج مكة (طرق مكة) كلها طريق.

---

(١) رواه أبو داود.

ولما وقف على عرفات قال ﷺ وقفت هنا، وعرفة كلها موقف.

ولما وقف في جمع (مزدلفة) قال: وقفت هنا وجمع كلها موقف.

ولما نحر الهدي في منى قال: نحرت هنا ومنى كلها منحر[1].

ولما أراد أن يشرب من زمزم، أراد أن يستقي بالدلو بنفسه فخشي أن يُغْلَب القائمون على السقاية على أمرهم، حتى ينتزع الناس منهم تلك المكرمة، بازدحامهم على السقاية متابعة لرسول الله، فقال ﷺ للقائمين على سقاية الناس من بني العباس:

«لولا أن تُغلَبوا لنزلت حتى أضع الحبل»[2]. أي: لولا خوفي من أن يغلبكم الناس على السقاية لنزلت إلى البئر حتى أرفع الدلو بالحبل.

فتعالَ ـ أخي ـ ننظر أين نحن من رسول الله ﷺ فيما نأتي ونَذَر. لنرَ أين نحن بين المحبين له ﷺ.

(١) رواه أصحاب السنن.

(٢) رواه البخاري.

غداً نلق الأحبة محمداً وصحبه

«من أشدّ أمتي لي حباً، ناس يكونون بعدي، يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله»

رواه مسلم

تروي السيدة عائشة أن أباها أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لما حضرته الوفاة قال: أي يوم هذا؟

قالوا: يوم الإثنين،

قال: فإن متُّ من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها إلى رسول الله ﷺ[1].

وتوفي ـ رضي الله عنه ـ في ليلة الاثنين، الليلة التي قبض فيها حبيبه محمد ﷺ وكان له من العمر ثلاثة وستين عاماً، وهو نفس العمر الذي انتقل له حبيبه محمد ﷺ.

سبحان الله!!

لقد وحّدته المحبة مع محبوبه في كل شيء، حتى في وفاته وسنين حياته ومكان دفنه.

قال الواسطي:

وكان سبب وفاة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وفاة رسول الله ﷺ فإنه ما زال منها كمداً حتى مات[2].

---

(١) رواه أحمد.

(٢) مجمع الأحباب ١/١٨٧.

لقد عاش ﷺ بعد النبي ﷺ أقل من عامين، ولكنهما كانا له كأنهما دهر طويل، لقد كان رسول الله ﷺ لأبي بكر كالماء والهواء، لم يتركه ﷺ في موقف من مواقف حياته إلا وكان في خدمته من البعثة إلى الوفاة، مروراً بالهجرة وسائر الغزوات والمشاهد، فكيف يطيق ـ ﷺ ـ الحياة بعده؟

وأما بلال فلما حضرته الوفاة، صارت زوجه تصرخ: واحزناه، واحزناه، فيقول ﷺ: بل واطرباه، غداً نلق الأحبة محمداً وصحبه.

إن مصيبة الموت صارت مع حبه ﷺ نعمة ومنة، وصارت وحشته أنساً وسروراً وطرباً.

وروى الحافظ الأصفهاني عن خالد بن معدان ﷺ أنه كان إذا أوى إلى فراشه، ذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ، ثم يسميهم، ويقول:

هم أصلي ونصلي، وإليهم يحنّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبض روحي إليك، حتى يغلبه النوم وهو في بعض ذلك[1].

فانظر يا أيها القارئ أما زال الموت لك بلاء ينغّص عليك عيشك كلما ذكرته، أم أنك تتشرح لذكره لأن فيه لقاء المحبوب ووصاله ورؤيته؟

(١) مجمع الأحباب ٣/٨٩.

كلكلم لأجل الحبيب حبيب

ولو قيل للمجنون أرض أصابها غبار ثرى ليلى لجدَّ وأسرعا

لا يخفى أن المحب يستأنس بكل ما له صلة بالمحبوب، حتى لو قيل له إن هذا التراب وطئه المحبوب، لأقبل عليه يشمه ويلثمه.

وهذا الأمر كان يشاهَد - وما زال - بكثرة مع من أحبوا رسول الله ﷺ ولا سيما أصحابه الكرام الذين ملؤوا منه ومن متعلقاته عيونهم وقلوبهم.

ويرسم لنا عروة بن مسعود صورة معبرة عن ذلك في حديث رواه الشيخان.

وقد كان عروة هذا وسيطاً بين النبي ﷺ وقريش عندما أراد النبي ﷺ أن يدخل مكة معتمراً، فأبت قريش عليه ذلك في قضية الحديبية.

وعندما رجع من لقائه مع النبي ﷺ إلى مكة، قال لسادة قريش:

«أي قوم، والله لقد وَفدْت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قطّ يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمداً، فوالله ما تنخم نخامة (أي ما بصق) إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه»[1].

وأعطى رسول الله ﷺ عبد الله بن أُنَيس - رضي الله عنه - عصا، فكان عبد الله يقرنها بسيفه، لا يتركها أبداً، فلم تزل معه، حتى إذا مات أمر بها فجعلت في كفنه، ثم دفنا جميعاً[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد.

وكان عبد الله بن مسعود يتشرف بحمل نعلي رسول الله ﷺ عندما يخلعهما ﷺ، يحمل كل نعل في ذراع[١]، على هيئة المحتضن له، وكأنه - رضي الله عنه - يريد أن يدخلهما إلى قلبه، لأنهما لامستا قدمي رسول الله ﷺ.

وأتته امرأة وهو يأكل القديد (اللحم المجفف) فقالت: ألا تطعمني؟ فأعطاها ﷺ مما في يده، فأبت، وقالت: لا، إلا الذي في فيك، فأخرج ﷺ من فمه وأعطاها، فألقته في فمها.

وكانت هذه المرأة معروفة ببذاءة اللسان، فيقول راوي الحديث أبو أمامة: فلم يعلم من تلك المرأة بعد ذلك شيء مما كانت عليه من البذاءة[٢]، وذلك ببركة ريقه ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي. وقد آلت بعض نعال النبي ﷺ إلى مدينة دمشق، فكانت هذه المدينة تفخر على سائر الأمصار بهذين النعلين الشريفين، وقد كان لأحد تجار دمشق واسمه ابن أبي الحديد، وقد راوده عنها ملك الشام يوم ذاك الملك الأشرف، وبذل له فيها قرية من القرى، فأبى، ولما توفي آل أمرها إلى الملك الأشرف، فبنى دار الحديث الأشرفية، وجعل النعل في صندوق فوق المحراب، ولكنها احترقت عند دخول التتار إلى دمشق.
وعندما زار ابن السبكي دمشق ودخل دار الحديث أنشد:

ولي دار الحديث لطيف معنى ... أصلي في جوانبها وآوي
عساني أن أمس بحر وجهي ... مكاناً ناله قدم النواوي

يقول الشيخ محمود الرنكوسي: سألت المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني - وكان مقيماً في دار الحديث - ما هو المعنى اللطيف الذي قصده ابن السبكي؟
فأجاب الشيخ بدر الدين بأنه النعل الذي كان في الدار، وقد احترقت المدرسة واحترق النعل معها ولكن بقي السر موجوداً حتى الآن وبعد الآن. (انظر المعرفة الحقيقية لدار الحديث الأشرفية للشيخ محمود الرنكوسي ص ٥).

(٢) رواه الطبراني.

ومسح ﷺ بيده على ناصية أبي محذورة (أي مقدمة رأسه) فكان - رضي الله عنه - لا يقص شعر ناصيته ولا يفرقها استدامة لأثر كفه ﷺ كما سبق ذكره.

وشرب ﷺ من قربة من جلد لأم سُلَيم (والدة أنس بن مالك) فلما فرغ ﷺ من شرابه أسرعت إلى القربة فقطعت منها حيث وضع ﷺ شفتيه، واحتفظت به عندها[١].

وبايع رسول الله ﷺ عمران بن حصين فكان عمران يقول:

«ما مسست ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ»[٢].

ويقول أنس بن مالك:

رأيت رسول الله ﷺ، والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[٣].

وروى البخاري عن محمد بن سيرين قوله: قلت لعَبِيدة السَّلْماني عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس.

فقال عبيدة: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إليّ من الدنيا وما فيها[٤].

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه مسلم. هذا وقد تفرقت تلك الشعرات المباركات في الأمصار، وتوارثتها الأجيال ومن شرَّفه الله بحيازة واحدة منها، يرى نفسه وكأنه حيزت له الدنيا بحذافيرها، وهي عنده أعزُّ من أهله وماله، ويذكر الشيخ يوسف النبهاني نقلاً عن الشيخ عبد الغني النابلسي، أن السلطان نور الدين زنكي كان عنده من تلك الشعرات، وأنه أوصى إذا هو مات أن تجعل في عينيه عند موته، فجعلت كذلك، كما في جواهر البحار للنبهاني: ٤/ ٨١.

(٤) رواه البخاري. قال الذهبي عند تعليقه على قول عبيدة السابق: «هذا القول من عبيدة هو معيار كمال الحب، وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس، ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا، لو وجدنا بعض شعرة بإسناد ثابت، أو شسع نعل كان له، أو قلامة ظفر، أو شفقة من إناء شرب فيه» انظر سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠.

وقال ثابت البُنَاني لأنس بن مالك: يا أنس، مسست يد رسول الله ﷺ بيدك؟.

فقال أنس: نعم.

فقال ثابت: أرني أقبلها[١].

فقبَّل رحمه الله يد من مست يدُه يدَ رسول الله ﷺ في يوم من الأيام.

ودخل واثلة بن الأسقع الصحابي - ﷺ - على يزيد بن الأسود يعوده من مرض ألم به، فأخذ يزيد يد واثلة فمسح بها على وجهه وصدره لأنه بايع بيده تلك رسول الله ﷺ[٢].

وكان ابن عمر - ﷺ - يضع يده على موضع قعود النبي ﷺ من المنبر ثم يضعها على وجهه[٣].

لقد صارت آثار النبي ﷺ لمحبيه كقميص يوسف أُلقي على وجه يعقوب فارتدّ بصيراً.

لقد سَرَت بركة النبي ﷺ وأنواره إلى كل شيء انتسب إليه فيا هنيئاً لمن تشرف بأثر من آثار رسول الله ﷺ.

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات.

وتعزّروه وتوقّروه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

سورة الحجرات

قبل عدة أيام من انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، جهّز جيشاً لغزو الروم، وجعل أسامة بن زيد قائداً عليه، وفي الجيش أبو بكر وعمر وزيرا رسول الله ﷺ.

ثم إنّ رسول الله ﷺ انتقل، وكان الجيش في عسكره خارج المدينة ينتظر الأمر بالمسير.

وبانتقال الرسول ﷺ ابتلي المسلمون بلاء عظيماً، إذ ارتدت العرب التي دخلت في الإسلام بالأمس القريب، ولم يدخل الإيمان قلوبها، وصار المسلمون في المدينة المنورة كما وصفهم عمار بن ياسر كَنَعَمٍ بلا راعٍ، وصارت المدينة أضيق على أهلها من الخاتم.

ولما وَلي أبو بكر أمر المسلمين، رأى كثير من الناس أنه لا بد من استبقاء الجيش في المدينة لحماية عاصمة الإسلام في ظل الردة، بدلاً من إرسالها لغزو الروم في أقصى الشمال، وخوطب أبو بكر بهذا فماذا قال ﷺ؟

قال: «أنا أحبس جيشاً بعثهم رسول الله ﷺ؟! لقد اجترأت على أمر عظيم، والذي نفس أبو بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته».

ولم يغفل ﷺ أنه كان جندياً في جيش أسامة قبل انتقاله ﷺ، فقال ـ وهو الخليفة ـ لأسامة:

«إن رأيت أن تأذن لعمر بالمقام عندي حتى أستعين برأيه على أمر المسلمين، فأذن له أسامة».

ومشى أبو بكر مع الجنود، وأسامة أمير الجيش لرسول الله ﷺ راكب فلما ودّعه قال له:

«اصنع ما أمرك نبي الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل، ولا تُقَصِّرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ»[1].

لم يفكر ﷺ في الخطر الذي يتربص بالمدينة، وقد خرج مَنْ فيها، والأعداء يحيطون بها من كل جانب.

ولم يفكر في أنه لا يليق به وقد أصبح الخليفة أن يستأذن من أسامة في استبقاء عمر، ولا أن يمشي وأسامة راكب، وأسامة يومها كان دون العشرين، لقد سلَّت محبة رسول الله وتعظيم أمره كل المنافذ أمام تلك الخواطر.

ويحدثنا عبد الله بن عباس ﷺ، فيقول:

كان للعباس ميزاب على طريق عمر، فلبس ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذُبح للعباس فرخان، فلما وصل عمر للميزاب، صُبَّ الماء على دم الفرخين، فأصاب ذلك الماء عمر، فأمر عمر بقلع الميزاب، ثم رجع فطرح ثيابه ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢٠، وتاريخ الطبري ٣/ ٢٢٥.

فقال عمر للعباس: فأنا أعزم عليك لَمَا صَعِدت على ظهري، حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ ففعل ذلك العباس[١].

خليفة المسلمين، ومن كان يحكم نصف الدنيا، ونصفها الآخر يهابه يحني ظهره، ليصعد عليه العباس، ويعيد الميزاب الذي آذاه، إلى المكان الذي وضعه به رسول الله ﷺ، وكل ذلك إمعاناً في الخضوع لأمر حبيبه وسيده ﷺ والاستسلام لرأيه ﷺ.

ويحدِّث ثابت بن أنس عن أبيه أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال:

قال أنس: أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، فسلّم علينا، فبعثني في حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حَبَسَك؟ فقلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟

قلت: إنها سر.

قالت: لا تخبرن بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً.

يقول أنس: والله لو حدّثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت[٢].

فأنس وهو طفل لم يرضَ أن يخبر أمَّه بشيء ظنَّ أن رسول الله ﷺ لا يحبّ أن يخبر به.

وأم سُلَيم (أم أنس) لما علمت أنه سرٌّ لرسول الله، شدّدت على ولدها بأن لا يخبر به أحداً أبداً.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه مسلم.

وانتقل رسول الله ﷺ إلى ربه وطعن أنس في السن، ونُسِيَ كلُّ شيء يتعلق بذلك السرّ، ولم يعد يترتب على ذكره أي ضرر، ولكنّ أنس لم ينسَ أن رسول الله ﷺ لم يكن يحب أن يخبر أنسٌ أحداً بذلك، فلم يذكر لولده ذلك الأمر الذي أرسله به رسول الله ﷺ من عشرات السنين، وقال له: لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت.

وقال عبد الله بن عمر محدّثاً عن النبي ﷺ يوماً: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1].

فقام أحد أبناء عبد الله وقال: «والله لنمنعهن»، فسبّه عبد الله سبًّا سيئاً، يقول الراوي: لم أسمعه يسبّ مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ، وتقول: والله لنمنعهن، والله لا كلمتك حياتي (أي والله لا أكلمك طول حياتي)[2].

فكان عبد الله على فراش موته يأتيه ولده ذاك عن يمينه فيحوّل وجهه إلى الشمال غيرة على رسول الله ﷺ أن يأمر بأمر فيقول قائل: والله لا أفعله.

ويقول عمرو بن ميمون اختلفت إلى ابن مسعود سنة، فما سمعته يقول قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدَّث يوماً فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، فنربَّد (تغيّر) وجهه وتغرغرت عيناه وانتفخت أوداجه[3].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه ابن ماجه.

وكل ذلك هيبة لاسم رسول الله ﷺ وتعظيماً لذكره.

وقال مالك رحمه الله:

جاء رجل إلى سعيد بن المسيب فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس وحدثه، فقال له الرجل وَدِدْت أنك لم تتعنَّ، فقال: إني كرهت أن أحدث عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع[١].

وكان مالك لا يحدث بحديث رسول الله ﷺ إلا وهو على وضوء إجلالاً له ﷺ[٢].

وقال مالك: لقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق ـ وكان كثير الدعابة والتبسم ـ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا عن طهارة[٣].

وقال مطرِّف: كان إذا أتى الناسُ مالكاً، خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟

فإن قالوا المسائل، خرج إليهم، وإن قالوا الحديث، دخل مُغْتَسله واغتسل وتطيّب ولبس ثياباً جدداً، ولبس ساجه، وتعمم ووضع على رأسه رداءه، وتُلْقى له مِنَصة، فيخرج فيجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود، حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ، ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) انظر الشفا: ٢/ ٤٠٤.
(٢) انظر المرجع السابق.
(٣) انظر الشفا: ٢/ ٤٠٤.
(٤) انظر الشفا: ٢/ ٤٠٤.

وعن حمّاد بن زيد قال: كنا عند أيوب السختياني فسمع لَغَطاً فقال ما هذا اللغَطُ؟ أما بلغكم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ كرفع الصوت عليه في حياته[1].

والأخبار التي من هذا القبيل كثيرة جداً، وهي ليست قاصرة على السلف، بل تعظيمه ﷺ والتأدب معه هو حال المحبين في كل زمان ومكان، فلا يُذكَر رسول الله إلا وخضعت له الرقاب، وهَمَلَت له العيون، وتوقفت عند حدود سنته المطامع.

ولننظر أين نحن من ذلك كله في معاشنا وحياتنا، فإنَّ منَّا من يعظم رئيسه في العمل أكثر مما يعظم رسول الله ﷺ، ثم يدّعي الحب له ﷺ.

وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقرُّ له بذاكا

(١) انظر الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي: ١/ ١٩٥.

الاتّبـــــاع

وأخيراً وليس آخراً....

لو ذهب المرء يستعرض أخبار محبيه ﷺ قديماً وحديثاً، لما وجد لعمله ذلك آخراً، وكيف يجد آخراً لذلك، والمحبوب هو خاتم النبيين وسيد الكونين وأفضل العالمين..

ولكننا لو أردنا أن نختصر أخبار المحبين في وصف واحد يجمعهم، لكان ذلك الوصف هو التفاني في الاتباع.

فكل ما ذُكِر ويُذْكَر من أخبار هو من فروع الاتباع، وكلُّ بركات الحب مجموعة في الاتباع.

لا تُتَصوَّر المتابعة ولا الطاعة بغير حب، ولو لم يحب المحبون رسول الله ﷺ، لما تابعوه، ولما أطاعوه، ولهذا كان رسول الله ﷺ على تلك الحال من الكمال الذي لا يملك المرء معه إلا أن يحبه، ومن ثمَّ يطيعه.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«وكيف يُفَسّر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته، فلا بد أن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب»[1].

ففي الاتباع تجتمع آثار المحبة وعلاماتها، وإلى الاتباع تؤول ثمار المحبة وخيراتها.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/٢٥٣.

الاتباع في الروح والجسد.

والاتباع في الظاهر والباطن.

أن تَتْبع جوارحُنا جوارحَه، وعاداتُنا عاداتِه، وهوانا هواه، ومكروهاتُنا مكروهاتِه.

بل نُتْبع أنفسنا نَفْسَه، شوقاً إليه، وشغفاً به، حتى نعيش معه، وننام معه، ونأكل معه، ونعمل معه، ونجاهد معه، وتكون حياتنا كلها معه ..

وخير ما يختم به هذا الباب كلام للسيد أحمد الكبير الرفاعي ﷺ.

يقول ﷺ:

«وأقول لكم: مفتاح السعادة الأبدية الاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده، وهيئته وأكله وشربه، وقعوده وقيامه، ونومه، وكلامه، حتى يصح لكم الاتباع المطلق.

بلغنا عن بعض الأئمة أنه ما أكل البطيخ، لأنه لم ينقل له كيف أكله رسول الله ﷺ، وسها بعضهم فابتدأ في لبس الخف باليسرى، فكفَّر عن ذلك بشيء من الحنطة.

وإياكم أن تقولوا: إن هذه الخصال من الأمور التي تتعلق بالعادات فتهملوها، فإن إهمالها يغلق باباً عظيماً من أبواب السعادة.

وأما العبادات فلا أعرف لعدم اتباعه ﷺ فيها من علز، إلا أن يحصل ذلك من كُفْرٍ خفيّ، أو حُمق جليّ، حمانا الله وإياكم.

أي سادة، والله ما أظنّ أن على بساط الغبراء صاحب عقل يميز بين

الخبيث والطيب إلا ويعتقد قلبه، ويُذْعن لبُّه، أن العبادة التي شرعها الحبيب عليه أفضل صلاة الله وسلامه، والعادة التي كان عليها، هي الحالة المرضية عند الرب والخلق، وهي الآداب المقبولة عند الخالق، والمحبوبة عند المخلوقين، وبها يطمئن القلب، ويسكن الرُّوع (القلب)...

الله الله بالمتابعة المحضة لهذا الرسول العظيم ﷺ الذي جاء رحمة للعالمين وحجة على المخلوقين ونعمة للموحدين»[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) البرهان المؤيد: ص ١٠٣.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥
كيف تكون صحابياً في القرن الواحد والعشرين؟ ٩
الباب الأول: تمهيد في الحب ١٣
الفصل الأول: الحب، ما الحب، وما أدراك ما الحب؟ ١٥
الفصل الثاني: أنت مع من أحببت ١٩
الفصل الثالث: حب النبي ﷺ ٢٣
الفصل الرابع: ولكن . . . هل يمكن تعليم الحب؟ ٣١
إشكال ٣١
الباب الثاني: الطريق إلى حب رسول الله ﷺ ٣٥
خلطة الحب ٣٧
الفصل الأول: الدعاء ٣٨
الفصل الثاني: التعرّف ٤١
أولاً: محاسن صورته الشريفة ﷺ ٤٣
ثانياً: محاسن أخلاقه الشريفة ٤٩
مشاهد من حياة الحبيب ﷺ ٤٩
مشهد ٥١
مشهد ٥٦

مشهد ٦٠
مشهد ٦٤
مشهد ٦٨
الفصل الثالث: الصلاة على النبي ﷺ ٧٣
أولاً: حكم الصلاة على النبي ﷺ ٧٣
ثانياً: وهل تجب الصلاة عليه كلما ذُكِرﷺ؟ ٧٣
ثالثاً: الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً ٧٥
رابعاً: الأحاديث الواردة في فضائل الصلاة على النبي ﷺ ٧٥
خامساً: أقوال العارفين في الصلاة على النبي ﷺ ٧٨
سادساً: أثر الصلاة على النبي ﷺ في تحصيل محبته ٨٤
سابعاً: هل هناك صيغة خاصة للصلاة على النبي ﷺ ٨٦
ثامناً: آداب الصلاة على النبي ﷺ ٨٧
الآداب الظاهرة ٨٧
الآداب الباطنة ٨٧
تاسعاً: اتخاذ الورد من الصلاة على النبي ﷺ ٩٣
ملاحظة هامة ٩٦
الفصل الرابع: زيارة مدينة رسول الله ﷺ ٩٧
أولاً: حكم زيارة النبي ﷺ وأثرها في زيادة الحب له ﷺ ٩٧

ثانياً: آداب زيارة المدينة والسلام على رسول الله ﷺ ٩٩
ثالثاً: مع المحبين في المواجهة الشريفة ١٠٨
رابعاً: وأنت التحق بركب المحبين ١١٨
خامساً: ساعات مع رسول الله ﷺ ١٢٤
الباب الثالث: أخبار المحبّين ١٣١
الجلد العاشق ١٣٤
خائف من الفراق . . . حتى في الجنة! ١٣٦
فاتبعوني يحببكم الله ١٣٨
غداً نلق الأحبة محمداً وصحبه ١٤٢
كلكلم لأجل الحبيب حبيب ١٤٤
وتعزّروه وتوقّروه ١٤٨
الاتّبـاع ١٥٤
فهرس الموضوعات ١٥٧